السلفية بين الدِّين السياسي وسياسة الدِّين

العمل السياسي سلوك اجتماعي عام، كل فرد في الأمَّة يضرب فيه بسهم، ويصيب منه قدراً يقل ويزيد، حسب قدرات الأفرادن وتفاوتها قوة وضعفاً.

ولست أعني بالعمل السياسي ذلك المعروف بنظرياته المختلفة، وأنظمته المتباينة، التي تشرد بعيداً عن الضوابط الشرعية، ولا ترى سلطاناً للعقيدة على فروعها وأصولها التي صاغها المنظرون والمشرعون، بقدراتهم العقلية البشرية المحدودة، سواء أأدركناها، وعرفناها –إما بالدراسة والنظر، والتلقي، وإما بالممارسة والعمل ضمن أطرها– أم طوتها يد النسيان، وغابت في خوافي القرون الغابرة، وضلت في ثنيات الزمن البعيد، وظلت أسماؤها لا تدل على حقيقة موسومة برسم أو معروفة بحد.

إذ هذا في حقيقة «دين السياسة» بنفاقها، وكذبها، وتزويرها.

بل أعني ذلك السلوك الذي تقيده العقيدة بمقتضاها ولوازمها وضوابطها الذاتية الدائرة في فلكها مذ كانت، وإلى أن تعود ميراثاً إلى ربها.

وهذا في أول أمره ونهايته «سياسة الدين» ورعايتها شؤون الأمة، وضبطها أوضاعها وشؤونها وأحوالها.

وإذ ذلك كذلك، فإن السلوك السياسي، والموثوق بمقتضى العقيدة، هو جزء من التصور الديني الشامل، وعمل سلوكي تحكمه الأحكام الشرعيةن ولا ينأى عنها بكله أو ببعضه إلا حين يكون انفصام بين العقيدة والسلوك، وبين الإنسان الذي ضل السبيل وذهب يتلمس بسلوكه سبيلاً غير سبيل الهدى، يحسب نسفه به أنه على الهدى، وليس هو على مثل ما يظن؛ ذلكم أن الظن يضع الظان بين أمرين مظنونين، لذا فإنه لا بد، وأن يكون الحكم في كل أمرٍ لله سبحانه وحده؛ لأنه المشرِّع الموحي بشرعه إلى المُبَلِّغ الصادق عنه وهو نبيه صلى الله عليه وسلم.

حينئذٍ –وبمثل هذا الحكم– يكون العبد المتلقي عن المبلغ الصادق صلى الله عليه وسلم قادراً على الحكم على كل أمرٍ يوافقه من الحكم الأتية من الله سبحانه، بدقة وصواب ووضوح.

ومن هنا؛ فإن غياب الشريع الغراء عن الحيا أحدث اضطراباً شديداً، واختلافاً قوياً، أخرجا الإنسان المسلم عن التصور السليم، والتقدير الصواب أو القريب من الصواب، إلا ما كان من الطائفة، التي أذهب الله عن بصيرتها الغشاوة فقد أمسكت هذه الطائفة بميزان

العدل الإلهي ووزنت الأمور والأشياء به، فأصابت الحق، ونفع الله بها العباد، بما أنعم عليها من حُسن تقدير العواقب والتبصر بالنهايات.

وليس من الكيس أن يدع الإنسان الحيس بليس، بل الكيس أن يأخذ الحيس بالكيس، وأن يدع ليس!!

ومن الكيس أن يعرف أين هو من الحيس؟ أبعيد منه أم قريب؟ فإن كان قريباً منه ذاقه أولاً؛ فإن وجده لذيذ الطعم، طيب المذاق –وهو واجد ذلك ولا بد– حرص على أن يأخذ منه شيئاً فشيئاً حتى لا يدع منه شيئاً، إما إن أقبل عليه بنهم ولم يسمع لقول من يقول له مرة: لا، ومرة: نعم، فإنه لا يبالي حينئذ أمع البشر يكون أم مع البهم.

ولقد أخلف كثير من المسلمين الظن الحسن حتى بأنفسهم حين تنادوا ممسين ومصبحين: أن أمسوا أو اغدوا على حرث السياسة إن كنتم صارمين، فانطلقوا إليه وهم يتخافتون، أن لا ينال منه أحد غيركم إن كنتم صارمين، وأدنوا إلى النار أقراصكم دون أقراص المسلمين أجمعين، ولا تدعوا لأحدٍ منهم كسرة يفيد منها إن كنتم عقلاء ناطقين.

ومُقتضى العقيدةِ يضع الإنسان المسلم في زماننا هذا –كما هو في أي زمان– أمام المنهج الذي لا يزيع بأهله

-وما زاغ بهم من قبل- فما وافقه أخذ به، وما خالفه نأى بنفسه عنه، وما كان للأمَّة من وجودها الحق فوق الأرض إلا به.

وحين يضع الإنسان المسلم هذا، يعلم علم اليقين أن الاقتراب من السلوك السياسي، أو الحوم من حوله هو كعمل الفراشة يستهويها الدوران حول النار، حتى إذا كلّت ملّت إلى النار فاحترقت، لماذا هذا؟ لأن السلوك السياسي أصبح خاضعاً لتفكير القوانين والأنظمة الإدارية والحياتية للإنسان، التي نسجتها يده لتصنع له سعادة وهمية، تنطلق به في آفاق الخيال الفسيحة، حتى إذا رأى الأمور بجلاء، على باطنها وظاهرها هبط مسرعاً إلى الأرض واقعاً، فإذا هو أمام ذاته الهزيلة المجهدة!

والسَّلفيَّة ما كانت يوماً خيالية التصور، ولا مثالية التفكير، فهي تنظر إلى الواقع بما فيه؛ فتحذر الشر وتبعد منه، وتستبشر بالخير وتسعى إليه، فإن أصابها أذى، أو أدركها نصب، فلا يزيدها ذلك إلا استمساكاً بالذي هو خير، وتعدُّ ما أصابها في ذاتها تجربة في ثوب ابتلاء.

ومن هنا أيضاً فإن التجربة التي تصيب أي عضو في جسد الأمَّة ابتلاء، وهو حق على كل فرد في الأمَّة لسائر الأمَّة -يجعلنا نقول: إن العمل السياسي الذي لا يخضع لمقتضى العقيدة، ولا يلتزم بالأحكام الشرعية، يجرِّىء الأوشاب التائهة على الاستكبار على الإسلام بسبب، في

حين أننا قد نجد- من بعض من يقوم على رعاية الأمَّة بالسلوك السياسي الرافض لمقتضى العقيدة والأحكام الشرعية- من لا يعادي الإسلام، ولا يستكبر على شرائعه وأحكامه، فهم يرون بعين المصلحة السياسية أن عداوة الدين لا تفيدهم في سلوكهم السياسي؛ فلا أقل إذاً من أن لا يكونوا له أعداءً، يمنون أنفسهم يوماً أن يكونوا له أولياءً، ويعلمون من التاريخ أن العدل ولو من غير دين يمد في عمر الدول والممالك، وأن الظلم -ولو مع الدين- يعجل في عمر الدول والممالك، فالعاقل من لا يجمع بين هجر الدين في ملكه وبين الظلم في الرعية، والجاهل من يجمع بين هجر الدين وبين الظلم في الرعية.

وحين يكون السلوك السياسي في بلد المسلمين محاكاة له في غير بلاده، لا يُكسب القائمين عليه قوة إلى قوة، ولا منعة إلى منعة -ولو خُيِّل إليهم ذلك- بما يمدون به من مالٍ وشوكة؛ بل إنه يكون من الظلم الذي يُشرع للرعية أن تظلم، فتكون عداوة ظاهرة أو مستترة بينها وبين الراعي، يزيدها ضراوة وحدَّة التربُّص الخفي الموثوق بحبال رقيقة لا تُرى إلا تحت مجاهر عيون الرصد التي لا تنام، في أقبية الأمن البعيدة.

وحين يلتقي العدل مع الدين على صعيد واحدٍ يصبح السلوك السياسي تحت ظلتها عملاً فاضلاً يرى عامله

نفسه ساعياً إليه باختياره، راغباً في أخذه لنفسه بما يقوى عليه جهده وطاقتهن نافياً عنها المذمة التي كان يخشاها التقاة المحسنون من مخالطة السلوك السياسي قديماً.

وقد انحسر في زماننا هذا السلوك السياسي الإسلامي الذي كان مستظلاً بظله الدين والعدل في الحقب الماضية، نأى عن مجتمعات المسلمين بعيداً، موثراً الترقب والانتظار إلى أن تعود تلك الظلة إلى مجتمعات المسلمين مرة أخرى، ويأوي إليها المسلمون مرة أخرى، ويمسكوا بطرف حبل العزة التي كانت لهم يوماً من الدهر.

ولما أن وفدت ظنون القوانين والأنظمة الكافرة إلى بلاد المسلمين، وغيب فيها المسلمون سلوكهم العام، وأرادها تلامذة الحضارات الخاوية الهابطة على تحطيم القيم والأخلاق الباقية للأمَّة، بعد أن زحزحوا بها الأثارة الصغيرة من الحدود، والأحكام التي كانت تحكم السلوك العام للمجتمع وتضبط مسيرته الحياتية، واستجاب لها المسلمون بالخواء الفكري، والترهل الجسدي، والترف المعيشي، وأضحوا من الفناء على غلوة سهم، استيقظت في صدور بعض منهم جذوة فكرية كانت خامدة بفعل الإلف الطويل، وصاروا ينظرون من طرف خفي إلى يوم موعود، ظنوه قريباً، وما هو بالقريب، وحسبوه يسير

المنال، ولو أنهم نظروا بعين العقل والبصيرة، لعلموا أن عقوداً –وربما قرون– ستقطعها أجيال وأجيال حتى يلاقوا هذا اليوم الموعود.

وبعد؛ فإن العمل السياسي في عالمنا العربي الإسلامي، لا يحسنه إلا من هيأ له، وصنع خصيصاً من أجله، ومن غير هؤلاء أحسن الدخول من بابه الواسع، فإنه لن يستطيع الخروج من باب النهاية الضيق، فإنَّ دخوله ربما كان من قبيل الصدفة، والصدفة لا تتكرر، وإن تكررت فبمثل ما وقعت في المرة الأولى.

وقد خيل لبعض (المارَّة)! من المسلمين الذين رأوا زخرف العمل السياسي مرة أو مرتين أنهم قادرون على الكر والفر بالعمل السياسي، فقالوا: جرَّبوا ولو (في العمر مرَّة) وجرَّبوا فعلاً، لكن كانت التجربة أكثر من مرة، وفي كل مرة لم تكن تسلم الجرَّة!! حتى إذا لم يبق من الجرة إلَّا عرواتها، أيقنوا أنه لم يعد للتجربة مكانٌ، فقنعوا بالجلوس على الكراسي والمنصات، والإمساك بالأقلام الجميلة، وإلقاء العباءات على ظهورهم العريضة المفلطحة، وإعفاء اللحى (المُخَنْجَرةَ)!! وتصعيد المحسوبيات والشفاعات الخاصة، التي تحقق المنافع الشخصية.

وصار غيابهم كحضورهم، وحضورهم كغيابهم، وكلامهم كصمتهم، وصمتهم مثل كلامهم، وابتسامتهم كعبوسهم،

وعبوسهم كابتسامتهم، وإعراضهم كإقبالهم، وإقبالهم كإعراضهم، وقيامهم كقعودهم، وقعودهم كقيامهم، وعويلهم كإمساكهم، وإمساكهم كعويلهم، وهكذا وهكذا.

وكانت دروساً لا درساً واحداً- تسرع تترى، لم يكن من أن يفيد منها من نأى بنفسه عن ذلك السلوك السياسي المسلوب الإرادة، المحمول على أجنحة الموت؛ موت الفكر السويِّ، موت الحياة الكريمة، موت المروءة الفضلى، موت الصدق، موت الوفاء، موت الورع، موت الهيبة، موت الزهد.

إن السلوك السياسي سلوك متميز -في عالمنا العربي بخاصة، والعالم الإسلامي بعامة- بصفات خاصة.

فهو غامض خفي! عروقه مملوءة حسرة وحشرجة!! إهابه ليس له لون يحب أو يكره!! يريحُ النظر أو يُتْعِبُه!! مصنوع من نفطٍ وماء!! مزاجه لا يعرف إلَّا من أسَرَّ له به!! يبدو أحياناً رقيق الشعور جذاباً شاعري الحاشية!! ويبدو أحياناً غليظ الإحساس، منفراً، ثقيل الظل، جاسي العصا!! إن أقبل فلا يدبر، وإن أدبر فلا يقبل، إن أحسن أساء، وإن أساء أحسن، إن أضحك أبكى، وإن أبكى أضحك، حُسنه مصنوع، وقبحه مطبوع، يده طويلة، وكفه مقبوضة، باعه قصيرة، وجيبه محظورة، من أطاعه منحه، ومن عصاه منعه، ذلكم أن الانفصام بين الدين وبين الدولة، صار أمراً مقضياً لا مرد له، ولا طاعن عليه، ولا

محيد عنه.

ومن هنا فإن مخالطة السلوك السياسي على ما هو عليه الآن لا ينبغي، ولا وجه من الإباحة لزحزحته عن دائرة المحظورات الشرعية، من خالطه بوزر ومن تاب منه تاب الله عليه.

وإن كان لا بد من مخالطته فبالقدر الذي تفرضه «الضرورات تبيح المحظورات» والضرورة تقدَّر بقدرها، ولا يجوز مجاوزتها بأكثر منها، والأمة كلها على مثل هذا، ولا نقول: «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» ولكن نقول: بأن لكل أجلٍ كتاباً، و «الأمور مرهونة بأوقاتها»، و «من تعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه»، و «من أحسن البدء في أمره أصاب نجحاً في دبره».

ولعل قائلاً يقول: -أو لعل معترضاً يعترض -وهل هذه قواعد شرعية، حتى لا يعدل الإنسان عنها بالتعامل مع السلوك السياسي؟ فأقول جواباً على ذلك: إنّ هذا هو الطريق الآمن الذي يقرأ فيه المسلم العاقل النهاية المأمولة من قوله تعالى: {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى الله إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُون} [سورة التوبة: آية 32].

وما أصاب المسلمون من هذا الوعد الإلهي إلا أقله، أما هو آت فلا ريب فيه، يشهد لذلك الحديث الذي أخرجه

الإمام مسلم وغيره: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبد اللاّت والعُزَّى» فقالت عائشة: يا رسول الله! إن كنت لأظن حين أنزل الله : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [سورة الصف: آية 9]، أن ذلك تام، قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحاً طيبة؛ فتوفى كل من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه؛ فيرجعون إلى دين آبائهم».

ومن هذه القراءة يعرف الإنسان المسلم أن الجهد العقلي والقلبي والبدني الذي يبذله يجب أن يكون حافظاً له، ومحفوظاً به في آن معاً، وأن الله سبحانه سائله عن أقل القليل من هذا الجهد، وأن يجعله سائراً به بعيداً عن السلوك السياسي، يقوده بحسن التفكير والبصر إلى رضوان الله سبحانه، وامتثال قول الله سبحانه به: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [سورة النحل: آية 125].

ثم ههنا أمرٌ مهم، وهو أن الاجتهاد -خطأً كان أم صواباً -لا يحسن أن يُسلم المجتهد بخطئه إلى عاقبة سوء، ولا أن يُسلمه بصوابه إلى نجح تافه يسير بعد أن يكون قد أبدى للزمان عن ناجذيه، أو أرجف بكلام راعد، أو أجلب عليه بظنون حالمة، ألقت به على نمارق ناعمة، أو أوقفته أمام سراب خادع -إن حسر فإنما يحسر عن

أوام ومسغبة دائبين، لذا فإن الذين يجتهدون اليوم ويجعلون من الواقع –على حد تعبيرهم– دليلاً من الأدلة الملزمة في تصويب ما يجتهدون فيه، أو تخطئته، إن يظنون إلا ظناً، لذا: فإن الاجتهاد لا يصلح بهم، ولا هم يصلحون له ولا به؛ فخير لهم أن يوصدوا باب الاجتهاد دونهم بأنفسهم، وأن يدعوه للقادرين عليه ممن أفاء الله عليهم باستظهار الأدلة من الكتاب والسُّـنَّة، وسبر غورها، والتمكن من معانيها.

إنما الاجتهاد –خطأً كان أم صواباً –لا يحسن إلا إن كان قد أسلم صاحبه بخطئه إلى عاقبة سالمة لا شيَةَ فيها من شر إلا أذى يسيراً إن كان، أو أن يسلمه بصوابه إلى نجح باهر جميل يحثه أو يحمله على مثله في الأيام الآتية، يبصر فيه نفسه وأمته مسرورة بأن قد أقصاها باجتهاده الصواب عن عاقبة السوء، وسوء العاقبة.

وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»[1] ولا بد ومن هنا كان حقاً على الاجتهاد أن لا يقبل لنفسه كل غر يدعي الاجتهاد!!

هذا إلى أن الاجتهاد لا يكون مع صريح النصوص، وما أكثر النصوص المتواردة المتتابعة على موطن خطر مخالفة السلوك السياسي في عالمنا العربي والإسلامي،

---

1 () متفق عليه عن أبي هريرة.

ليس سلوكاً يرضى عنه الله سبحانه، إذ كيف يرضى عن سلوك لا يقبل حكم الله وقضاءه الفصل : ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيما} [سورة النساء: آية 65]؟!، ولكأنهم عند مراد الله في قوله: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ} [سورة المائدة: آية 50]؟!

فأين يكون الاجتهاد الذي ينتهي بالمجتهد أو المجتهدين إلى مخالفة صريح النص، ومطابقة نص ينعى عليهم ما هم فيه، وهذاما يجب أن يبرأ منه كل مسلم، وأن يحذره، وينأى بنفسه عنه، ويحذر المسلمين منه بما أوجب الله عليه من النصح إن هو عرف حكم الله فيه، وإلا فهو غاش جماعة المسلمين، والرسول صلى الله عليه وسلم هو القائل: «من غشنا فليس منّا»[1] والغش هو أن لا يمحض المسلم نصحه إخوانه المسلمين وهو عالم ما يفسد وما يصلح.

وإذا كان الواقع المشهود يصلح دليلاً ينصب على أمر فإن الواقع التجريبي –الذي يعلمه الناس علم اليقين– يؤكد خطأ الاجتهاد –الذي أودى في الماضي بجهود كثيرة بذلك ولا زال، والمستقبل بيد الله وحده، ومفاتيحه عنده– وما ينبغي أن يجتهد في واقعه المجهول غير المنظور ولا المحسوس إلا من خلال الأخبار النبوية

---

1 () رواه مسلم.

الصادقة، التي علمنا بها مسار الأمة من أوله إلى آخره.

ومجانبة السلوك السياسي ليس مهادنة للأنظمة التي تعكف عليه وتحميه وتدافع عنه –فإن ذلك كله أمرٌ قضاه الله سبحانه، وخلق له أسبابه– بل هو من باب السياسة الشرعية التي يجب على العلماء والدعاة تعليمها الناس، وتفقيههم بها، فإن في هذه المجانبة حمايةً للجهد الدعوي، ونجاةً من مخالطة أمرٍ يقود مخالطه –ولا بد– إلى محظورات أنه يصير يرضى بالسكوت عن المنكر؛ الذي لم يكن يرضى عنه قبل المخالطة، ذلك أن طبيعة السلوك السياسي لا تقبل التفريق بين المنكر وبين المعروف، فالمنكر سلوك، والمعروف سلوك، ويمكن أن يعيشا معاً جنباً إلى جنب من غير أن ينكر المعروف على المنكر شيئاً، أو ينكر المنكر على المعروف شيئاً، وماذا يعيب المنكر على المعروف أو المعروف عن المنكر وفي وسعهما أن يمتزجا، ويأتلفا، ولا يتخالفا؟! نعم: هكذا!! وهذه فلسفة السلوك السياسي المعاصر!!

فمثلاً هذا فلان من المخالطين السلوك السياسي يصلي، وفلان لا يصلي، فلا يحسن بالمصلي أن يرى في ترك الصلاة عيباً يعيب تارك الصلاة، وليس من حسن الأدب أن يرى تارك الصلاة في فعل الصلاة عيباً يعيب به فاعلها، ولم يكن هذا السلوك السلبي قبل المخالطة

مقبولاً، لكنه بالمخالطة أصبح هو الأمر المقبول وحده[1].

ومثل الصلاة في هذا سائر الأعمال –سواءٌ أكانت صالحة أم كانت غير صالحة– فالائتلاف الذي أحدثه مخالطة السلوك السياسي أحدث قبولاً للمتناقضات، وصيَّرها مقبولةً كلَّ القبول، فهل يكون العمل السِّياسي مقبولاً بمثل هذا القبول؟!

أحسب أن مقولة: «دَع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» كلمةٌ حكيمةٌ تصلحُ لزماننا، ونحن نرى السُّلوك السِّياسي على مثل ما نراه ما دُمنا نستحضر في ذواكرنا المسار الذي حدَّدته الأخبار النَّبويَّة للأُمَّة.

وإذا كان لنا أن نجتهد في هذا الأمر –ونحن لا ندَّعي صوابَ اجتهادنا– وبعد أن عرضنا السُّلوك السِّياسي –عَرضاً وافَينا به أموراً لا تقع إلَّا في دائرة المحظورات– فإنَّنا نرى: أنَّ العمل السِّياسي للمسلم لا ينبغي أن يجاوز التَّصوُّر النَّظري المحض، فإن تجاوزه فإلى التَّعبير عنه بالكلمة الواعية، التي تُصوِّر كل ما يتَّصل بالسُّلوك السِّياسي تَصويراً واقعيَّاً يُنبىءُ عن صدق التَّصوُّر، ويَضع الإنسان المُسلم أمام حقائق مُسلَّمةٍ تُفضي به إلى النَّجاة بفكره وعقيدتِه ودينه وبدنه، ويُبعده عن مهابِّ الفتن،

---

[1] () ولذلك ..لُعِنَ الَّذين كفروا من بَني إسرائيل على لَسانِ داوودَ وعيسى ابن مريمَ ذلكَ بما عصَوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يَفعلون.

وتيَّاراتها الجامحة التي أحاطت بأرضنا من كلِّ جهاتها، وملأت آفاقنا كلَّها، وما كادَ ينجو منها إلَّا كلُّ ذي لبٍّ رَشيدٍ، والنَّاجي يُرجى بنجاته نجاةُ آخرين.

واجتهادنا في هذا الأمر –ونَرجو أن يكون صالحاً فيه خيرٌ ورشد إن شاء الله– نرتِّبه في المسائل الآتية:

1– العمل السِّياسي الإسلامي جزءٌ من النِّظام الإسلامي العام، لا يجوز إغفاله، ولا إسقاطه من حساب العمل الإسلامي.

2– وحين تكون للإسلام دولٌ تحمي وجوده، ووجود العاملين له يُصبح العمل السِّياسي للسَّواد الأعظم من الأمَّة من النَّوافل لأمرين:

الأوَّل: أنَّه يحتاج للتَّخصُّص والمتخصِّص.

الثَّاني: أنَّه جزءٌ من العمل القيادي.

3– العمل السِّياسي في عصرنا –ونحن نعدُّه من المحظورات الشرعيَّة– يُفرَضُ على العلماء والدُّعاة التَّحذيرُ منه؛ لما بيَّنا من قبل، وعليه فإنَّ تركه للقائمين عليه أولى من أن يُنافسهم فيه غيرهم، وخشية من أن يُضارُّوا به، والتَّحذير منه بدءاً يُجنِّب العاملين الإسلاميِّين كثيراً من الأخطاء التي ألمَّ بها الذين خالطوا العمل السِّياسي، وغرقوا في لُجَّته وأغرَقوا غيرهم!

4– والتَّحذير من العمل السِّياسي ليس تحذيراً

مجرَّداً، بل يجب التَّحذير مع بيان المحاذير الشرعيَّة التي تخالط العمل السِّياسي، والمحظورات التي تأسَّس عليها، وشيَّد هيكله من أجل ديمومته، وطول بقائه، ومن أوضح الواضحات في هذه المحظورات أنَّه بمجموعه مصادم لأُصولِ العقيدة وفروع الشريعة.

5- العمل السِّياسي جزءٌ لا يتجزأ من عمليَّة واسعةٍ ضخمةٍ إذا نجحت الأُمَّة في تحقيقها، لا يلبث العمل السِّياسي أن يصبح همَّاً سهلاً من همومها، وما لم تنجح الأُمَّة في تحقيقها فسَيبقى العمل السِّياسي في أدنى درجات الاهتمام، رغم الدَّعاوى العريضة التي تطلقها حناجر السِّياسيين، ومحترفي السِّياسة، والصَّاعدين الجدد في سلَّمها، والمؤمنين بسلبيَّاتها الكثيرة، وإيجابيَّاتها القليلة، ومن شاءَ فليَنظر، ليُبصِرَ الواقع!

هذه العمليَّة ذات شقَّين تسير في خطَّين اثنين في آن معاً، ولا بدَّ من التقائهما في نهاية هذين الخطَّين، والشقُّ الأوَّل هو: تنقية العقيدة وتَصفيتها من كلِّ الشوائب التي خالطتها وشوَّهت وجهَها البَهيج، والشقُّ الثَّاني هو: تربيةُ أفراد الأُمَّة وتنشئتهم على أساس من الأحكام الشرعيَّة، والآداب الإسلاميَّة وفق ما ورثناه عن القرون الثَّلاثة المُفضَّلة الأولى.

وهذه العمليَّة بشقَّيها هي التي سيَّر عليها النَّبي صلى الله عليه وسلم أصحابه منذ اليوم الأوَّل الذي بدأ فيه

نزول الوحي عليهِ، وما كان له أن يفصم بينهما، والوحي يعقد بينهما بآصرة واحدة، في بواكير الآيات القُرآنيَّة، فقوله سبحانه: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ *خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم} [سورة العلق: الآيات 1-5]، هذه الآيات مَزَجت بين العقيدة، وبين الأحكام في وثاق متين وهو شيءٌ لا يَخفى على من يتأمَّله ويتبصَّر فيه.

ومثل هذه الآيات أيضاً قوله سبحانه: {يأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ *وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ *وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} [سورة المدثر: الآيات 1-4] فقد جمعت بين العقيدة وبين الأحكام وبين الدَّعوة، وكأن الله سبحانه يلفتُ نبيَّه صلى الله عليه وسلم، إلى أنَّ هذه الثَّلاثة لا ينفك بعضها عن بعض، فوضوح العقيدة يُلزم العمل بالأحكام المخاطب بها، وثمرة العمل بالأحكام -وهو مقتضى العقيدة- هي دعوة النَّاس إلى ما منَّ الله به عليه من وضوح العقيدة والعمل بمقتضاها.

وإذا كان هذا هو شأن نبيَّنا صلى الله عليه وسلم مع الوحي، فالأُمَّة -وهي المتأسِّية به- أولى أن يكون هذا شأنها مع الوحي، لأنَّ استجابتها للوحي ليس كاستجابة النَّبي صلى الله عليه وسلم، واستجابة الصَّحابة أفضل وأسرع للوحي من استجابة الأُمَّة في قرونها الآتية من بعد إلى أن يأذن الله سبحانه بإرادته أن يكون لهذه الأُمَّة

في آخر أمرها خلافةٌ على منهاج النُّبوَّة، فيكون لهذه الخلافة -ولا بدَّ -هَيمنَةٌ بولايتها العامَّة على الأُمَّة، وبالشوكة التي في يدها التي كان لها بها التَّمكين في الأرض.

وبَدَهيٌّ أن عمليَّة التَّربية والتَّصفية كانت أيسر تقبُّلاً، وأسرع استجابةً في الصَّحابة، فمُعلِّمهم والآخذون عنه محمَّد صلى الله عليه وسلم، والوحي لا يبطىءُ عنهم بأمر إلاَّ لحكمة، ثمَّ لا تلبث آياته أن تنزل عليهم سراعاً، فيرونها ماثلةً في شخص نبيِّهم صلى الله عليه وسلم سلوكاً واضحاً نيِّراً، لذا فإنَّ إقامة البُنية الذَّاتيَّة للجماعة المسلمة هذه الجماعة في العهد المكِّي قد استغرقت وقتاً أطول من الوقت الذي استغرقه بناءُ الدَّولة بعد الهجرة، فالإعدادُ -ولا شك- أصعب ممَّا يأتي من بعده في عمليَّة بناءِ الدَّولة والمجتمع.

من هنا؛ فإنَّ حقَّاً على العلماء، والدُّعاة العلماء أيضاً أن يكونوا نقلةً أخياراً أُمناءَ لهذه العمليَّة ذات الشقَّين، وأن يكونوا هم الأُسوة الظَّاهرة للعيان، لا تَخفى منهم خافيةٌ من أجزاء هذه العمليَّة، فذلك أدعى لأن يكون هناك استجابةٌ صادقةٌ من النَّاس لهم، وإذا نحن علمنا أنَّ للأحوال الزَّمنيَّة والبيئيَّة التي يعيشها المسلمون -في هذا القرن، وما قبله، وما سيأتي من بعده- أثراً بيِّناً واضحاً في البطء الذي مُنيت به الأُمَّة نحو دينها؛ فإنَّ الإسراع

في الحصول على ثمرة هذه العمليَّة لن يكون محموداً، لا في بدايته، ولا في نهايته؛ إذ أنَّ الأمَّة ليست مهيَّأةً أوَّلاً: التَّهيأة الصَّحيحة لجني هذه الثَّمرة، وثانياً: فإنَّ أعداء هذه الأُمَّة في يقظةٍ دائمةٍ يرقبون بها حركات العمل الإسلامي، ويقدِّرون –حسب خطَّة زمنيَّة دقيقة– النَّتائج والثَّمرات التي يمكن أن يجنيها ويحصل عليها الإسلاميُّون، على اختلافهم وتفرُّقهم وتنازعهم.

لذا، فإنَّه لا بدَّ وأن يكون تقديرنا –في إنجاح مسارنا بهذه العمليَّة ذاتِ الشقَّين– تقديراً دقيقاً محكماً، إن لم يكن مثل إحكام تقدير أعدائنا ودقَّته؛ فلا أقلَّ من أن يكون قريباً منه.

نقول هذا لو أنَّنا كنَّا لا نملك الرُّؤية الواضحة الموضِّحة؛ التي نعرف فيها معرفةً كاملةً كلَّ خطوَةٍ يجب أن نخطوها ونحنُ نمضي سراعاً إلى المُستقبل؛ فكيف ونحن نملك هذه الرُّؤية بالأخبار النَّبويَّة الصَّادقة التي لم يبخل بها –وحاشاه– نبيُّنا محمَّد صلى الله عليه وسلم؛ فكان فيها العلمُ، والتَّعلُّم، والتَّعليمُ، والبيانُ الجَليُّ، والخُطوَةُ الآمنَةُ، والثِّقَةُ الكاملةُ؟

إذاً؛ فلْنَلْوِ أعنَّة نفوسنا وعقولنا إلى الوحي نستبصره، ونستجليه، ونستعين بالله، ونصير على موعوده، ولا نعجل على أنفسنا بأمرٍ قضى الله فيه فكان، ولن يكون إلَّا كما قَضى.

سادساً: قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تزالُ طائفةٌ من أُمتي قائمةً بأمر الله، لا يضرُّهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على النَّاس»[1] قولٌ محكمُ، فسيحُ الجوانب، بعيد الغايات، وكثير الدَّلالات، حريٌّ بأن نستظهر دلالاته، وغاياته، وجوانبه، فإنَّ فيه –أي الاستظهار– دليلاً منيعاً لا يُظاهر الأدلَّة التي سقناها على ما ذَهبنا إليه فحسب؛ بل هو الدَّليل الأظهر والأقوى الذي لو لم يكن سواه لكفى[2]!

فقوله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال» أي: ستظل وتبقى، وقوله: «طائفة» أي: جماعة من أمَّتي أو فرقةً منها، وقوله: «قائمةً بأمر الله» أي: حافظةً له، والحفظ هنا قد يكون بالشوكة والقوَّة، وقد يكون بالعمل والبيان والدَّعوة، وقوله: «لا يضرُّهم من خذلهم» أي: إنَّ تَخذيل المخذِّلين لهم وتركهم نُصرتهم وإعانتهم لا يُضعفهم ولا يُقعدهم عن القيام بحقِّ أمر الله والحفاظ عليه ذهابُ بعض النَّاس إلى خلاف ما ذهبوا هم إليه، وضدِّه، وقوله: «حتى يأتي أمر الله» أي: حتى يُظهر الله دينه، ويُتمَّ نوره، ويُكمل للأُمَّة النِّعمة بالتَّمكين لهم في الأرض بشريعته.

وقَد يرى بعضٌ بأنَّ معنى أمر الله، هو: يوم القيامة،

---

1 () متفق عليه عن معاوية.

2 () ولي في الطائفة المنصورة رسالة مفردة فلتنظر.

لقوله سبحانه: {أَتَى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ} [سورة النحل: آية 1]، ولعلَّ هذا المعنى بعيدٌ هنا، ويؤكِّد بُعده قوله صلى الله عليه وسلم بعده: «هم ظاهرون» أي: وهم المنصورون، ولا يكون لظهورهم معنىً إذا كان وقت قيام السَّاعة لأنَّ في ظهورهم نعمةً باديةً –ولا بدَّ– للأُمَّة، وهل من النِّعمة على الأُمَّة، أن لا تُصيب الأُمَّة من النِّعمة؟!

ومن الشكر على النعمة، أن يكون شكر من الذين لا يعرفون وجه الصواب، في مثل هذا الأمر، لمن يدلهم على وجه الصواب فيه، وإلا حبس قلوبهم والسنتهم عن أداء حق الشكر لهؤلاء، ويزيد من امعان السوء في الأُمَّة وزيادة، وفي هذا المعنى يقول عليه الصلاة والسلام «من لا يشكر النَّاس لا يشكر الله».

والرَّسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث، إنَّما يُحدِّث أُمَّته بنعمةٍ آتيةٍ لها، مقبلةٍ عليها، لتُصيبَ منها ما به يكون لها فَرَحٌ وسرورٌ، وأين يكون فرحٌ وسرور للأُمَّة، يستوجب منها الشكر لله على هذه النِّعمة، التي أصابت منها ما كانت تُمنِّي بها نفسها، إن وافَتها حين تقوم السَّاعة؟ والسَّاعة لا تقوم إلاَّ على لُكَعِ ابن لُكَع، ولا تأتي إلاّ على شرار الخلق كما أخبر بذلك النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم، هل يكون للأُمَّة فرحَةٌ وسرورٌ بأن يرى شرار الخلق طائفةً منها، وقَد ألمَّت بموعود الله لها وحدها دون

سائر الأُمَّة، ليوم أو لأيَّامٍ قليلة؟!

إذاً؛ أين تكون الأُمَّة من هذا الفرح، ومن هذا السُّرور وهي قد كانت ترقب أملاً يُشرق على أرضها بشيءٍ، يبدِّدُ أحزانها ويُغيِّبُ آلامَها، ويُنسيها -كما يُقال- البلاء الذي حلَّ بها من قبل؛ بانتشار الإسلام، وهيمنة عقيدته، وعلو كلمته؟ كما أخبر بذلك صلى الله عليه وسلم، في كلماته التي حملت بشرياتٍ صادقةً، وكما أعلمنا ربُّنا سبحانه بصريح كلماته في كتابه بقوله: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [سورة الصف: آية 9].

ونذكر جملةً صالحةً من كلماته صلى الله عليه وسلم، لنعلم بها أنَّ الله سبحانه -الذي اجتبى هذه الأُمَّة باجتباء نبيِّه ورسوله منها، لتكون الأُمَّة الخاتمة، التي تحمل رسالات ربِّها للعالمين قاطبَةً- قد جعلها حِجراً دافئاً للأُمَم كافَّةً تأوي إليه؛ فتَصيبُ فيه الهُدى، والعلم، والقوَّة، وتَذوقُ فيه طَعمَ الإخاء، الذي بشَّر به الأنبياء من قبل نبيِّنا، وبشَّر به هو صلى الله عليه وسلم من بعدهم، وتكون الأُمم كافَّةً تبعاً لهذه الأُمَّة المرحومة، بما هيَّأ الله لها على يَدي نبيِّ الهُدى والرَّحمة صلى الله عليه وسلم.

ومن هذه الكلمات قولهُ صلى الله عليه وسلم: «إنَّ الله زَوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنَّ أمَّتي

سيبلغ مُلكها ما زوي لي منها»[1].

وقوله: «لَيبلُغنَّ هذا الأمر ما بلغ اللَّيل والنَّهار، ولا يترك بيت مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلاَّ أدخله الله هذا الدِّين، بعزِّ عزيزٍ، أو بذلِّ ذليلٍ، عزَّاً يُعزُّ الله به الإسلام، وذُلَّاً يذلُّ به الكُفر»[2].

ومنها أيضاً ما روى الإمام أحمدُ وغيره عن أبي قبيل قال: كنَّا عند عبدالله بن عَمرو بن العاص، وسئل أيُّ المدينتين تفتح أوَّلاً، القسطنطينيَّة أو روميَّة؟ فدعا عبدالله بصندوق؛ فأخرج منه كتاباً، قال فقال عبدالله: بينما نحن حول رسول الله صلى الله عليه وسلم نكتب، إذ سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ المدينتين تُفتح أوَّلاً أقسطنطينيَّة أو روميَّة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مدينة هرقل تفتح أوَّلاً، يعني قسطنطينيَّة».

وهذه الأحاديث وغيرها مخرَّجة تخريجاً كاملاً في الجزء الأوَّل من «سلسلة الأحاديث الصَّحيحة» لشيخ السُّـنَّة الأوحد، وصيرفها الحاذق الفرد: الشيخ مُحمد ناصر الدِّين الألباني، أمتع الله المُسلمين بطول عمره[3]، ونافع

---

1 () رواه مسلم عن ثوبان.

2 () رواه أحمد وابن حبان والبيهقي عن المقداد بن الأسود بسند صحيح.

3 () توفي رحمه الله في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة،

علمه، فمن شاء التَّزود فليعد إلى هذه السِّلسلة الفريدة.

وهذه الطَّائفة الظَّاهرة ليست ظاهرةً بشوكتها وقوَّتها، ومنعتها، إنَّما هي ظاهرةٌ بعلمها، وفقهها، وسَعيها الدَّؤوب في دَعوة النَّاس إلى الحقِّ وإلى الصِّراط المُستقيم، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكر، والأخذ بعزلئم الأمور، وعدم التَّرخُّص في الدِّين[1]، والصَّدع بكلمةِ الحقِّ، والإبانة عن الأُصول الكلِّيَّة التي تأسَّس عليها شرع الله، والتَّواضع للخلق، والأذان في النَّاس بأنَّ النُّصرة من الله لا تكون إلَّا بالمُستضعفين والمساكين كما أخبر بذلك صلى الله عليه وسلم، وأنَّ الاستكثار من الدُّنيا ومتاعها، والانصراف إلى جمع المال وكنزه يزيد من طغيان النَّاس، ويذهب رونق الإيمان من حياتهم، وهذا ولا شك سببٌ في إبطاء النَّصر عن الأمَّة، إن لم يكن سبباً في دمارها وقَد كان[2].

سنة عشرين بعد أربعمائة وألف من الهجرة.

[1] () ومن الترخُّص في الدين وضع الأمور في غير مواضعها، كأن نضع الصعب محل السهل، والسهل موضع الصعب، كالذين يسعون لازالة أو لزعزعة الأنظمة التي يتربع فيها الظالمون، والواحد منهم لا يكاد يقيم على لسانه آيةً من كتاب الله، أو حديثاً من كلام رسول الله ×، وليس يملك من أمره إلا التسليم والإذعان للظلم الذي لا يستطيع دفعه أو تحريك لسانه بإنكاره.

[2] () وليس أدل على ذلك مما آلت إليه حال الأُمة حين نظرت بعد الفتنة إلى أموالها فلم تعد تملك منها إلا ما تحسبه أن لها،

ولم يكن الرَّسول صلى الله عليه وسلم يخشى الفقر على أمَّته؛ بل كان يخشى أن تبسط عليها الدُّنيا، فتتنافسها فتهلك فيها كما أهلكت الأُمَم التي قبلها، وليس أمر الخاصَّة والعامَّة اليوم بخافٍ علينا، فليَنظر أحدُنا فيما أحدث المال من فتنة فينا، وكم أذهب من مروءات، وأضاع من التَّقوى، وأزهق من الأخلاق، وأفقد من الهُدى.

وبهذا لم يعد هناك من سبب، تبسط به الأُمَّة يدها بالدُّعاء والتَّضرُّع تستنزل به النَّصر من واهبه، وتَستكتب به التَّمكين من المُنعم به، وتظاهر به نفسها على تَحقيق وعد الله للأُمَّة.

وقَد يسأل سائل فيقول: لقد ذكرت في مطلع كلامك أنَّ العمل السِّياسي سلوكٌ اجتماعيٌّ عامٌّ، على كلِّ فردٍ من الأُمَّة أن يضرب فيه بسهمٍ، ويصيبَ منه قدراً، وكلامك من بعد قولك هذا يلغيه، لأنَّك ترى أنَّ العمل السِّياسي لا ينبغي فهل يكون المسلم الملتزم في حلٍّ من أمره بتركه العمل السِّياسي، يمسك بزمامه البعيد والقريب، والقاصي والدَّاني، والخيِّر والشرِّير، على تفاوت فيما بينهم في الشرِّ؟!

أقول جواباً لذلك كلمةٌ جميلةٌ تعلَّمناها من مشايخنا قديماً، وحفظناها كما نحفظ الآية من كتاب الله، هي:

وليس لها منه إلا الأرقام تحفظها فحسب، أما التَّصرُّف فيها فلا، وكلا!

«أفعال المكلَّفين مصونةٌ عن العَبث»، وهل هناك عبثٌ أكبر من أن يشتغل بالسِّياسة من لا يعرف معناها في عصرنا هذا؟ ولا يدري مأتاها وسبيلها، ولا قواعدها وأُصولها، ولا أبوابها ومخارجها؟ إذ السِّياسة اليوم –بكل نظريَّاتها– تجعل من نفسها حمىً يَحرُمُ على المسلم الملتزم دخوله أو الاقتراب منه، وتُغري بها كلَّ من يلتزم بالإسلام، أو من يكون له بالإسلام شِبه التزام، أو من يكون على وفاقٍ مع بعض الإسلام، وليس على وفاقٍ مع البعض الآخر، فأين سيكون موقعُ المسلم الملتزم بين هؤلاء الذين ذكرنا، وهو يعلم سلفاً أنَّهُ إن دخلَ هذا الحمى –فلا يدخله إلَّا وهو يضع رداء الغُربة على منكبيه– لا يلبث أن يخرج مسرعاً. وإلَّاذاقَ مرارة الهوان؟!

ولا أحسب أنَّ مسلماً يرى –والأمر على مثل ما وصفنا– أنَّ واجباً عليه العمل السِّياسي، لأنَّه ليس شيئاً يُطيقه، ولا أمراً يقدر عليه، والله لا يكلِّف نفساً إلَّا وسعها.

إذاً؛ فواجبٌ عليه أن ينظر فيما هو مُستطاع له، ولا ريب أنَّ الاشتغال في المستطاع –ممَّا أمر الله سبحانه به عباده، وكلَّفهم به، من فعل المأمورات، وترك المنهيَّات– هو المطلوب أوَّلاً منه شرعاً، لأنَّ الله سبحانه لا يكلِّفُ نفساً إلَّا وسعها، ولا يكلِّفُ العباد في دينهم –الذي شرعه لهم– ليؤثِّمهم بالعجز عمَّا يطيقون من

فعل المأمورات وترك المنهيَّات، وهو ثانياً: بتكليفه المخاطبين بما يطيقون من فعل المأمورات، وترك المنهيَّات فقط، يحملهم على الإقبال الجادِّ عليه، وصرف الجهد إليه، وترك غير المقدور عليه، حتى يُصبح مقدوراً عليه؛ فيُصبح الجُهد المبذول في المقدور عليه أوفر بمُضاعفته، فيكون حظُّ النُّجح فيه أقوى وأكثر، ويكون العمل أحسن وأصلح، وأسلم عاقبةً، وبخاصَّةٍ إذا أيقنَّا أنَّ أعداءَ الإسلام يرقبون بعيونهم المبثوثة في كلِّ أرجاء عالمنا الإسلامي ما يكون من أمر المُسلمين الملتزمين منهم وغير الملتزمين، ويضعون –بالنَّتائج التي تعود عيونهم بها إليهم– الخطط المنظَّمة، ويحيطونها بالكتمان، ويسخِّرون لها إمكاناتٍ وطاقاتٍ كثيرةً؛ ماليَّةً، وبدنيَّةً، وعلميَّةً يُحكمونَ بها الطَّوق حولَ الأُمَّة، فلا تستطيع التَّحرك بحريَّةٍ تَمنحها قِسطاً من القدرة على التَّفكير في أمر نفسها.

أضف إلى هذا، أنَّ المسلمين الملتزمين، على فُرقةٍ، واختلافٍ، وعداوةٍ، وتحاسدٍ، وتحارشٍ، ومراءٍ لا ينقطع فيمن هو الأحقُّ والأولى بالاتِّباع والصَّدارة!! وعدوُّهم جميعاً واحدٌ، لا يؤثر واحداً منهم أو جماعةً على جماعةٍ أخرى في عداوته.

وكثيرٌ منهم مالَ إلى الدُّنيا، ومالت به الدُّنيا، واطمأنَّ لها، واطمأنَّت به، ولا أدلَّ على هذا وذاك ممَّا نشاهده من

الواقع المذهل الذي جعلهم أُضحوكةً في نظر أُولئك الأعداء.

فالمقدور عليه عند المسلمين الملتزمين: نزاعٌ، وتفرُّقٌ، وتحارشٌ، وتحاسدٌ، وتباغضٌ،واختلافٌ، ومراءٌ موصولٌ، وقعودٌ عن نُصرَة بعضهم البعض، ومفهوم النُّصرة فيهم لا يكون إلاَّ بالانتماء والولاءِ للجماعة أو الحركة، أمَّا الانتماءُ للدِّين فيأتي من وراء الانتماءِ الأوَّلِ.

وأشدُّ وأنكى من هذا كلِّه قناعة الكثيرين منهم -بعد رؤيتهم الحال السَّيئة التي صاروا إليها- بجدوى نجاحهم إن هُم خالطوا العملَ السِّياسي، وظنُّهم أنَّهم قادرون على التَّغيير وتوجيه الأُمَّة في مسيرتها نحو الأفضل والأمثل!!

وإذا كان هذا هو المقدورَ عليه عند جماهير المسلمين الملتزمين، ممَّن يَتَسمَّون بأهل السُّـنَّة والجماعة، لأنَّه الأيسر والأسهل عندهم -والحمد لله على كلِّ حال!!- وهو الذي رَضُوه وألفوه، بل وأحبُّوه جداً، وإلاَّ ما كانوا ليَحرصوا عليه هذا الحرص الذي يبقيه فيهم، بشرَّتِه، وفَراهَتِه، وعُنفُوانه، فماذا إذاً هو غير المقدور عليه فيهم؟

غيرُ المقدور عليه فيهم هو: ما كان يمكن لو حرصوا عليه، واستعانوا الله عليه -بإخلاصٍ، وعملٍ لا يُخالف فيه عن أمر الله سبحانه- أن يُنقذهم من كلِّ الاسباب التي

قادتهم إلى هذا الواقع المرير الأليم الحزين الباكي.

وهل هناك شيءٌ أفسدُ للأُمَّة، وأذهب لمَودَّتها، وأنفى لصلاحها من فساد ذات البين كما قال صلى الله عليه وسلم: «إنَّ فسادَ ذات البين هي الحالقة، لا أقول؛ تحلقُ الشعر، بل تحلقُ الدِّين»[1].

وما الذي يُذهب فساد ذات البين؟ إنَّه الذي قلنا عَمليَّةٌ ذات شقَّين، تسير في خطَّين اثنين في اتِّجاهٍ واحدٍ، وفي آنٍ واحدٍ: تنقية العقيدة وتصفيتها من كلِّ الشوائب التي خالطتها، وتربية أفراد الأُمَّة وتنشئتهم على أساس من الأحكام الشرعيَّة، والآداب الإسلامية وفق ما ورثناه عن القرون الثَّلاثة المفضَّلة الأولى.

وهذا واجبٌ، أوَّل من يجب أن يحرص عليه، هم أهل المنهج الحق، الذين ورثوا ما منَّ الله به على القرون الثَّلاثة المفضَّلة، وفق ما أمر الله من غير حرجٍ، ولا إثمٍ، ولا عجزٍ عنه «فاتَّقوا الله ما استَطعتم» «إذا نهيتكم عن شيءٍ فاتركوه كلّه، وإذا أمرتكم بشيءٍ فأتوا منه ما استطعتم»[2].

نعم: قد يوفَّق بعض المسلمين في بلدٍ من بلادهم إلى إقامة حكم الشريعة، لكن هذا لا يعني تحقيق موعود الله سبحانه لها، بل يكون من ظهور الطَّائفة النَّاجية، وما لم

---

1 () رواه أبو داود والترمذي عن أبي الدرداء بسند صحيح.

2 () سبق تخريجه.

تتحقَّق وحدة الأمَّة على كلمةٍ سواءٍ بينها، بالتوحيد الحق، والحكم الواحد الذي يختلف عليه ولا فيه، وما لم تزل الهنات -من بين أفراد ال طَّائفة النَّاجية- النَّاشئة من الجهل، واستصغار الشأن، والطَّمع، فقيام مثل هذا الحكم لا يغيِّر من واقع الأُمَّة شيئاً يذكر.

وما أحكم تلك الكلمة التي ردَّ بها الحسن بن علي رضيَ الله عنه على دعوة عبدالله بن الزُّبير -حين دعاه للقتال معه، وذكَّره بأنَّه كان قَد قاتل مع أبيه- ضدَّ معاوية: «هات لي مثل أبي أُقاتل معه».

وبهذا يظهر جليَّاً للذين يأخذون على السَّلفيِّين عدم اشتغالهم بالعمل السِّياسي -لماذا يكره السَّلفيُّون هذا العمل؟ فالبَون بينهم وبين الدَّائبين السَّعيَ في العمل السِّياسي شاسعٌ جدَّاً.

ولقد علمت الجِنَّة والإنس أجمعون أن لو شاء الله سبحانه أن يكون للمسلمين دولة في هذا القرن لكانت، ولكن أين سيقع خبر المصطفى صلى الله عليه وسلم: الذي أخبر فيه بأنَّ دولة الخلافة هي آخر مراحل العمل السِّياسي لهذه الأُمَّة، وخاتمة المطاف لسعيها، ولسوف يسبقها الملك الجبريُّ القهري، الذي تُستلبُ في السُّلطة استلاباً بالحديد والنَّار والاستكبار، وبه يكون الخراب للبلاد والفساد بين العباد، فقد قال: «تكون النُّبوَّةُ فيكم ما شاءَ الله أن تكون، ثمَّ يرفعها الله إذا شاءَ أن يرفعها، ثمَّ تكون

خلافةً على منهاج النُّبوَّة، فتكون ما شاءَ الله أن تكون، ثمَّ يرفعها إذا شاءَ الله أن يرفعها، ثمَّ تكون مُلكاً جبريَّاً فتكون ما شاءَ الله أن تكون، ثمَّ يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثمَّ تكون خلافة على منهاج النُّبوة».

إذاً؛ فليس يطلب من الأُمَّة الآن إلاَّ أن تُهيِّء نفسها لموعود ربِّها سبحانه، بتحقيق دولة الخلافة، التي يعمُّ عدلها الأرض، ويملأُ نورها ما بين الخافقين، فإذا ما علم الله أنَّ الأُمَّة قَد تهيَّأت لمثل هذا الأمر كان، ولن يكون إلاّ حين تَذوب الفِرَق والطَّوائف والجماعات كلُّها، وتلتقي على المنهج الحق، منهج الكتاب والسُّـنَّة، منهج القرون الثَّلاثة الأولى التي استمسكت بالعروة الوثقى، عُروة العقيدة السَّليمة النَّقيَّة، والشريعة الصَّحيحة السَّويَّة، التي تستمسك بها في هذا القرن –وفي كلِّ قرن مضى أو سيأتي– الفرقة المرحومة النَّاجية التي قال فيها صلى الله عليه وسلم: «من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»، فإذا ما علم الله سبحانه أن قد تهيَّأت الأسباب، ورضيت الأُمَّة لنفسها أن تلتقي بها على الفرقة النَّاجية؛ فإنَّه سبحانه سوف يُظهر أمره، ويعلي حكمه، ويكافيءُ الأُمَّة على ما أحسنت لنفسها، بخلافةٍ راشدةٍ على منهاج النُبوَّة.

وربَّما حدَّثت البعض نفوسهم أنَّ الأُمَّة قَد سئمت أنظمة الحكم وأنماط المذاهب الفكريَّة التي تأسَّست

وقامت عليها دولُ هذه الأنظمة بما جرَّت عليها من بلاءٍ عظيم، وبما أصابت الشعوب من ضرَّائها وبأسائها، ما لا قِبَلَ للجبال به، فالأُمَّة بهذا أصبحت مهيأةً راغبةً في إقصاءِ هذه الأنظمة الحاكمة التي لم تستطع أن ترغِّب في الإبقاء عليها، وقفزةٌ خاطفةٌ واحدةٌ سوف تطيحُ بهذا النِّظام أو بذاك؛ فإذا هو مكبٌّ على وجهه، لا يقوى على النُّهوض.

وليته بقي حديث نفس –إذاً: ما كان الله سبحانه ليؤاخذ من حدَّثتهم نفوسهم به– لكنَّه تعدّاه في بعض البلاد إلى الجهر به، ثمَّ إلى المشي نحوه، ثمَّ إلى رَمي (القـفَّاز) في وجه النِّظام! ثمَّ إلى العمل على تغيير هذا النِّظام، الذي ظُنَّ أنَّهُ طائحٌ لا محالة.

والمستقرىءُ الأحداث التي نجمت من جرَّاء تغيير هذه الأنظمة، أو محاولة التَّغيير، يعلم الطَّامَّات التي جاشت بها الأرض وتجشأت، وتناوحت، بها الرِّياح ونوَّحت، وتحالكت بها الليالي وأحلكت!!

ويحسن بالأُمَّة بعامَّة، وبالعلماء، وبالدُّعاة بخاصَّة، أن يَستبصروا قول الله سبحانه: {إِنَّ الله لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [سورة الرعد: آية 11] فهي قاعدةً توجيهيَّةٌ تُصيب الأُمَّة بها حظَّها من الرِّبح أو من الخسارة، بقدر ما أدركت أو علمت من معناها.

وليس يَصلح حال الأُمَّة اليوم إلَّا بما صلح عليه من

قبل، وحالها اليوم لا يُنبىءُ عن رجاءٍ، بل ولا عن أمل.

وكثيرٌ هم أُولئك الذين يقيسون الحاضر على الماضي، ويحسبون الزَّمن واحداً، لأنَّه –على تعدُّد قرونه، وعقوده، وسنينه، وشهوره، وأسابيعه وأيَّامه– موصولٌ بعضه ببعض، فلا ينفك قرن عن الذي قبله، ولا عن الذي بعده، ومثل القرن في ذلك العقد، والسَّنة، والشهر، والأُسبوع، واليوم، لكنَّهم يَنسبون –في فورة حماستهم– أنَّ أهل القرون والعقود –إلخ– يتفاوتون، فلا هؤلاء مثل أُولئك، ولا أُولئك مثل هؤلاء، وإلاّ فماذا يُقال في هذه الفِرَق والجماعات التي تقرأ وتسمع قول نبيِّها صلى الله عليه وسلم: «لا تحاسَدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يَبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخواناً».

ولو كان أهل قرن –كالقرن الثَّاني عشر مثلاً– يشبهون أهل القرن العاشر، فلا يقال: إنَّ أهل القرن الثَّالث مثلاً يُشبهون أهل القرن التَّاسع، فالفروق النَّفسيَّة، والأخلاقيَّة، والقدرات والطَّاقات البدنيَّة والعقليَّة ظاهرة الفرق، بيِّنة البعد بين هذا القرن وذاك القرن، فالاعتداد باعتبار أنَّ الزَّمن كالجسم الواحد على تباعد قرونه وعقوده –إلخ– اعتدادٌ ضعيفٌ، ولا يحسن أن يُنظر إليه علىأنَّه مقيس عليه، يبحث عن مقيس –ليكون أحد أركان القياس– فيقال في المقيس أهل القرون أو أحوالها، أو أحداثها، فذاك قياسٌ باطلٌ لا يصلح.

لذا فإنَّ قرننا هذا الخامس عشر، لا يصلح له ما كان يصلح في القرن الأوَّل، أو الثَّالث، أو الخامس مثلاً، فيقال، لمن يقول بخلاف هذا: انظر في الانحسار الذي يكون عند نهاية كل قرنٍ، عن ماذا ينحسر؟ وماذا يخلِّف وراءَه للقرن الذي يليه؟ وما دام أنَّه لا يصلح لهذا القرن ما يصلح للقرن الذي يليه؛ فإنَّه -قياس القرون المتأخِّرة على القرون المتقدِّمة- قياسٌ مرودٌ، وإلاَّ لتساوى ناس القرون جميعاً لأنَّ الكتاب الذي تأسَّست عليه القرون السَّابقة هو الكتاب نفسه الموجود بين أيدي أهل القرون اللاَّحقة، فلماذا إذاً كان هذا التَّفاوت الظَّاهر بين القرون السَّابقة وبينَ القرون اللاحقة؟!

إذاً؛ فالعبرة ليست بظرف الزَّمان، إنَما العبرَة بأهل الزَّمان أنفسهم!

ولا يجوز أن يكون للأُمَّة دورٌ -بسكوتها- في المظاهرة على إبقاء أعداء الإسلام يقيمون فوق أرضهم، أو يَنتقصون أنفسهم وأموالهم، وليكن دور الأُمَّة -وبخاصَّة علماءَها- النُّصح؛ لنفي الخطأ، وإقامة العوج، والإعانة على ما يكون حقَّاً غير ملتبسٍ بباطلٍ، والتَّذكير بالأمانة التي حمَّلهم الله إيَّاها، وأوجب عليهم حفظها، وبمصائر النَّاس التي لم يخلِّفوا من ورائهم بعدها، إلاَّ ذكراً حميداً أو ذكراً سيِّئاً.

وليكن الحاملُ علماء الأُمَّة وعُقلائها من ورائهم، درءَ

الفتن، وحفظَ الأنفس والأموال والأعراض، وصيانة الأرواح والدِّماء والأخلاق، وإشاعةَ المودَّة والأُلفةِ والتَّراحُمِ.

ويجب على العلماء والدُّعاة –وإن اختلفوا على أمور في غير العقيدة– أن يكونوا هم القدوة الصَّالحة لأفراد الأُمَّة وجماعاتها، وأن يكون تعلُّم الأُمَّة منهم بسلوكهم الحسن أكثر من تعلُّمها منهم بأقوالِ أفواهِهِم، وأن يكون في إعراضهم عن كلِّ منكرٍ، وإقبالهم على كلِّ معروفٍ، ما يُبيِّنُ للأُمَّة السَّبيل الأقوم، والمنهج الأكمل.

إنَّ التَّجارب العمليَّة التي خاضها الإسلاميُّون في بعض بلاد المسلمين أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك والظَّنِّ أنَّ العمل السِّياسي مِصيَدَةٌ نُصبَت؛ ليسقطَ فيها كل من يَدنو منها، أو يمسُّها، ولو بالكلمة.

والعاقل من يتَّعظ بغيره، والحكيم من يأخذ الحكمة من تجربة من سبقه، والبَصير من يُبصر ما جناه الآخرون في نفسه؛ فلا يخالط أمراً يعلم يقيناً، أنَّه مضيعةٌ للجهد والوقت، وليس وراءَه من طائل، وليرَ في تلك الكلمة الحكيمة ما يُلزمه مأمنه: «أفعال العقلاء مصونةٌ من العبث»، وإنَّه لمن العبث أن تسوقَ الحماسة العاطفيَّة بعضاً من المسلمين إلى العمل السيِّاسي الذي لا يصلح إلَّا لأهله وحدهم!! والأُمَّة على مثل هذا التَّفرُّق، والتَّنازع، والتَّخالف، الذي جعل من كل فرقةٍ من الثَّلاث وسبعين

فرقاً كثيرة.

ألا فإلى الله وحدَه المُشتكى!

الجِـــهَـادُ

الجهاد هو درعُ الله الحصينة، وعروة الدِّين الوثقى، وسنام الإسلام الأعلى، وحمى التَّوحيد المكين، وحين وهنت الأُمَّة، وانخذلت في نفسها، ورَكَنَت إلى الدُّنيا وزينتها، وقال قائلها: شغَلتنا أموالنا وأهلونا وصارَ الجهادُ شريداً طريداً في أرض الأُمَّة، يبحثُ في الأرض بعينين زائغتين، عن مكان يأوي إليه يُسِرُّ فيه لصاحب لواءٍ بالمودَّة، لِيَرفَع عنهُ الأوزارَ الثِّقال التي ألقت بها الأُمَّة عليه، ويعيد إليه ولو بعضاً من عافيته التي أطلَّ بها يوماً على مشارق الأرضِ ومغاربها، يَطرد عنها الذُّلَّ والمسغَبة، فتشرَق بها حلوقُ الجبابرة الطُّغاة – فلم يجد هذا المكان.

ولم يكُن الجهادُ يوماً –حين كانَ جهاداً– إلَّا وله يدٌ كاسبةٌ في الأرضِ للأُمَّة، وكان على الأُمَّةِ وهي تقرأ قوله تعالى: {هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ} [سورة الرحمن: آية 60]، وقد أصابت بالجهاد عزَّاً وتمكيناً وسلطاناً، أن تُبقي يدها قابضةً على سيفِ الجهادِ مكافأةً له على ما أعطاها، وردَّاً على حُسن الصَّنيع بمثله.

بيدَ أنَّ الأُمَّة التي صدَّت نفسَها بنَفسها عن سبيل الله،

وأعرضت عن شرعه، وتنكَّرت لعقيدته –على تفاوتٍ فيما بينها– ليسَ غريباً أن تقبض يدها عن الإحسان الذي نَدَبَ الله إليه، وكافأ عليه عباده المتَّقين، وكأنَّما جَعَلَ السَّبيلَ إليه أن يَرى عباده الصَّالحون في صنيع خالقهم معهم –على اقترافهم السَّيِّئات التي حرَّمها عليهم– ما يحبَّب إليهم الإحسان كلَّه إلى كلِّ شيءٍ يكون منه الإحسان إليهم.

ولا ريبَ أنَّ الجهاد لا يُسبقُ في إحسانهِ إلى هذه الأُمَّة المرحومَة؛ فهو السُّور المُمنَّع الذي يحميها، والسَّيف المُشرَعُ الذي يُقصي أعداءَها عنها، والبيت المعمور الذي يوفِّر الأمن والرَّخاء والعافية لها.

ولا والله ما ذاقَت الأمَّة طعم الذُّلِّ، ولا أكلت شوك العَوسَج، ولا تقلَّبت على فراش من حَسَك السَّعدان إلاَّ حينَ أغمدت سُيوفها في قُربُها، وأناخَت رواحلَ الفتح في مرابضها، وجعلت تعلفها بالسمنة، وأسلمت قيادها لرايات عميَّة لا تهتدي –من بعيد ولا من قريب– إلاَّ إلى أخونَةِ الطَّعام والشرابِ التي تَصنع الموت البطىء!! وتقود –من قبل ذلك– إلى مواطىء الهَوان الباخع، ويُمسي النَّاس –من حولها– ويُصبحون وهم يتجشأون من تُخمتها الرَّغيب بأمشاج القلق، والحيرة، والتَّردُّد، والفزع، النَّاشبة في صدورهم؛ في نومهم ويَقظتهم.

والجهـادُ اصطـلاحٌ إسـلاميٌّ محـضٌ، فإذا ما ذكـرَ

ذكر معــه الصَّبر، والتَّضحية، والبــذل، والرَّجاء النَّائل إحدى الحُسنيين النَّصر أو الشهادة، وهما طريق العزَّة في الدُّنيا، والخلود في نعيم الآخرة، ومن مات ولم يجاهــد، أو لم يحدِّث نفســه بالجهــاد، مـات ميتـةً جاهليَّةً عياذاً بالله تعالى.

والجهاد ليس نظريَّةً علميَّةً، إن أخطأت العالِمَ أو أخطأها العالمُ، فلا إثمَ عليهِ ولا تَثريب، إنَّما هو حقيقةٌ كلِّيَّـةٌ من حقائق الإيمان، وفرضٌ عظيمٌ من فرائض الإسلام، بل هو سنامُ الإسلام[1] كما أخبر بذلك النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم، والسُّور المنيع الذي يدَّريء المسلمون به، والغار الأمين الذي يأوي إليه الإسلام.

ولا يخفى على أحد من المسلمين ما أصاب المسلمين من بلاء وذلٍّ حين سقطت رايةُ الجهاد، ووقفَ المدُّ الجهادي، الذي شرَّق به المجاهدون وغرَّبوا، وصاروا به غرَّة التَّاريخ، بما حقَّقوا بجهادهم، من عدلٍ، وأمنٍ، ورخاءٍ، ومساواةٍ، فلمَّا أفاقوا –أي بعضهم– من الغفلة التي ضربت على قلوبهم أخذوا يتفكَّرون!! فلم يَجدوا ما يخلِّصهم من البلاء الذي حلَّ بهم إلَّا الجهاد، ولكن من يقوى على رفع رايته التي سقطت؟! وهل في وسع الأُمَّة –من مَشرقها إلى مغربها– أن ترفعها، لتلتقي من جديد حولها، وتومىءَ إلى نفسها –ولو بإشارة خفيفةٍ غير

---

[1] () كما في حديث معاذٍ الصحيح عند الترمذي وابن ماجه.

مسموعةٍ- أن تَخطوَ ولو خطوةً واحدةً في طريقِ الجهادِ.

وحين يذكر الجهاد، أوَّل ما يُذكر بذكره العملُ السِّياسيُّ، وكلمة السِّياسة لا تعني في الإسلام الاشتغالَ بالقضايا أو المسائل المتعلِّقَة بالشؤون والعلاقات الدَّوليَّة، سواءٌ أكانت هذه العلاقات والشؤون -على حدِّ التَّعبير السِّياسي اليوم- مع دولٍ صديقةٍ أو شقيقةٍ!!

السِّياسة في الإسلام تعني تدبير أمور الأُمَّة بعامَّة، وقَصْرُها على ما يتعلَّق بالشؤون الدَّوليَّة هو تقليدٌ واتِّباعٌ نشأ من الانسلاخِ من الأُصول الشرعيَّة والقواعد الدِّينية، والإعجاب بالمستحدثات الاصطلاحيَّة، التي أضلَّتنا عن ميراث النَّبي صلى الله عليه وسلم، وصارت هي السَّدَّ الحاجز بين المتشبِّعين بحب السِّياسة باصطلاحها الحادث، وبين من غفلوا عن معناها الشرعي الواسع، وقصروها على مقارعة الحكَّام، ومصاولتهم على طول الأيَّام، وما أُتي هؤلاء وهؤلاء من غفلةٍ، وهوىً، وجهلٍ.

ولو أنصفوا لعادوا لِمَا نَهْوا أنفسهم عنه، ونأوا عنه، وآثروا غيره عليه.

ونسأل: لماذا لا تستطيع الأُمَّة القيام بأعباء فريضة الجهاد؟

ذلكم، أنَّ الجهاد -وهو فريضة فرضها الله سبحانه -لا

يكون إلَّا بإمام وبإذنٍ منه، وهو في هذا مثل الحدود والعقوبات، فهذه لا يوقعها ولا يقيمها إلَّا إمام العامَّة.

إذ لو تركَ أمرُها إلى أفراد الأُمّة؛ لَفَسَد نظامُ المجتمع، وتَهارَش النَّاسُ فيه، وأضحوا فرائسَ بعضهم لبعض، وصارت الغَلَبة فيه للأقوى، لا للحق والعدل[1].

والقوَّة المودَعَة في دين الله هي فطرته التي فطر الله النَّاس عليها، وأناط تكليف العباد بما استودعها الله سبحانه من خصائص كانت نظاماً متيناً جمع الله إليه وبه التَّكاليف الشرعيَّة التي خاطبَ بها عباده.

وبما أنَّ الله سبحانه شرع الجهاد، وفرضه على العباد تأسيساً لقانون المدافعة؛ {وَلَوْلاَ دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ} [سورة البقرة: آية 257]، وليس يَقوى على إمضاء هذا القانون في النَّاس إلَّا من أذن الله له أن يُمضيه، وبما أنَّ الله سبحانه جَعَل في طبيعة فرض الجهاد أنَّه لا يقوم إلَّا بمجموع أفراد الأُمَّة، وطاقاتها العقليَّة، والبدنيَّة، والماليَّة، وبما أنَّ الله سبحانه شرع الجهاد لتأمن الأُمَّة به على نفسها في أرضها، وفي خارج

---

[1] () وما أمر أفغانستان ببعيد، فقد أقبلت الأمَّة كلها في أرجاء الأرض على أفغانستان حين رفعت الجماعات السبع راياتها السبع ظناً منها –أي الأمَّة– أن النصر بات قاب قوسين!
ولكن صار النصر محمولاً على أمل خائر، ورجاء بائر، وحسرات تقطع نياط العزائم.

أرضها، من عاديات النَّاهدين بعداوتهم على الأُمَّة ودينها وعقيدتها، وبما أنَّ الله شرع الجهاد لإرهاب أعداء الله، وكسر شوكة باطلهم، والحدِّ من تطلُّع غرورهم ومكرهم، وَشِرَّة باطلهم، الذي أجلبوا ويُجلِبونَ به على أهلِ ملَّة التَّوحيد.

وهذه كلُّها لا تكون، ولا تصلح، ولا تُحدث أثرها المطلوب؛ إلاَّ بالعمل بمقتضى قانون المدافعة الذي أقامه الله ناموساً مؤتلفاً مع النَّواميس الكونيَّة الأُخرى، إذاً فلا بدَّ من الرُّجوع إليه واستنطاقه.

وهذا القانون –قانون المدافعة –لا يعمل في الدَّائرة التي وضعه الله من أجل العمل فيها إلاَّ وفق حساب دقيق قدَّره تقديراً محكماً، لا يملك أحدٌ من البشر –بل وليس في طوقه– أن يستظهر حكمته، فضلاً عن أن يُقدِّم فيه أو يُؤخِّر.

ومن هذا الحساب الدَّقيق الذي قدَّره، أن يكون العملُ بمقتضاه مرهوناً بوجود أمير عامَّةٍ –يقيم حدود الله، ويقضي في النَّاس بما شرعَ الله في كتابه وسُنَّة نبيه صلى الله عليه وسلم، ويحمي الأُمَّة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ويُثيب على الطَّاعة، ويُعاقب على المعصية.

ولا نوغلُ في التَّاريخ، لضربِ الأمثال من كنانته التي

أودعها الله سبحانه أمثالاً، وأخباراً، وعبراً، بل يكفينا أن نُجيل النَّظر في واقع الأُمَّة اليوم لنُبصر كم كانت الخطيئات التي حطَّت بأثقالها على الأُمَّة برُمَّتها؟ وكم كانت الفتن التي اشتعلت أحقاداً مضرَّمةً بنارها! وكم كانت الدِّماء التي سالت أنهاراً تحت أرجلها! وكم كانت الأموال التي أُهرقت فاحترقت في أتونها! وكم وكم وكم! فإذا ما أبصرنا بهذا كلِّه علمنا علم اليقين أنَّ الجهاد من الأمور التي لا يؤذن بها إلَّا أن يكون الآذِنُ به هو الإمام، لأنَّ هذا كلَّه إنَّما كان –وابتليت الأُمَّة به، وأصابت من شروره وآثامه– حين صارت الأمور العَّامة التي لا تكون إلَّا بوجود الأمير– وله، وبإذنه –موزَّعةً بين أيدي أمراء؛ لا يُقوَّم أحدهم إلَّا بذلاقة لسانه، وجَعجَعَة كلامه، وجَهجَهَة عنانه، ثمَّ إذا نظر من حوله، وجد نفسه عارياً من كل ما يوجب على الأُمَّة طاعة الأمير الذي قال فيه الرَّسول: «واسْمَعوا وأطيعوا وإن وُلِّيَ عَلَيكم عبدٌ كأنَّ رأسهُ زبيبةٌ»[1].

والله –سبحانه– وهو يخاطب الأُمَّة بالجهاد، لا يخاطبهم به ليعجزهم عن القيام بحقِّه، فهو من الخطابات الشرعيَّة، التي تدخل في القاعدة الكلِّيَّة للتَّكليف {لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا} [سورة: آية]، فإذا لم يكن في وسع الأُمَّة القيام بحقِّ الجهاد لغياب الأمير (الخليفة)

---

1 () قطعة من حديث العرباض المتقدم تخريجه.

الذي يَعقد رايته، ويأذن به، ويولِّي أميراً على الجيش؛ فإنَّ -الجهاد- يصير من التَّكاليف غير المقدور عليها، ولا تُؤَثَّمُ الأُمَّة بتركه، إلاَّ إن رضيت، وليس عليها إلاَّ أن يظلَّ الجهاد حاضراً في نفوسها ترقب اليوم الذي يهييءُ الله له أسبابه، فتستجيب لندائه، والإثم يصيب منه من ولَّاه الله أمر الأُمَّة، وجعلَ مقاليدها في يده.

وحتى هذا الذي ولَّاه الله أمر الأُمَّة، لا يُؤثَّم إنَّما يُؤثَّم بترك الجهاد إذا كانَ قَد شغل نفسه عن الأُمَّة بأموره الخاصَّة، وانصرف عنها لاهياً عابثاً، وأدنى العُصاة الفُسَّاق أهل الأهواء، وأقصى عنه أهل الطَّاعة والنَّصيحة الأخيار، وأنال أولئك ومكَّن لهم، وحَرَم هؤلاء وأعرض عنهم، وألان قياده لأهل الكفر والباطل، وسعى إليهم لتكون لهم الوصاية والقِوامةَ على الأُمَّة، أمَّا إن كان لأسباب ليس في وسعه تلافيها، ولا في طوقه اختيار سبيل غيرها، فإنَّ له مندوحةً عن الإثم ولا يكلَّف به، لأنَّه عجزٌ عن القيام بحقِّه واستجلاب أسبابه، شأنه في ذلك شأن الأُمَّة.

ولا عذرَ لأُمراء الأُمَّة بترك الجهاد، بسبب ما هم فيه من فرقة، واختلاف، وتنازع؛ فإنَّ من حقِّ الأُمَّة عليهم أن يتداعوا إلى أمر سواءٍ بينهم، وأن يُوَلُّوا عليهم الأحقَّ منهم بالولاية، وأن لا يكون الحرص على الإمارة فيهم سبباً في بقاء يد الأُمَّة مغلولة عن الجهاد لإعلاء كلمة الله في الأرض، وبسط نفوذ الإسلام في الشعوب، وإقامة حكم

دين الله بينهم، ولينظر كلٌّ منهم ما قدَّم لغدٍ، وليستيقن أنَّ ما مكَّنه الله به من إمارةٍ، وسلطانٍ، وقوَّةٍ، ومالٍ ذاهبٌ من يده باقٍ في عقبه، وهو مقبل بالموت على ربِّه، وكم هم أولئك الذين ملكوا في الدُّنيا ما ملكوا ينظرون الآن –وهم أحياء– إلى ما كانوا يملكون، في حسرةٍ، وحزنٍ، وعجزٍ، ويرتدُّ إليهم طرفهم –عن ذلك الذي كانوا يملكون، وهم يبصرون به– وهو ذليل حسير، فقد أضحى كلُّ الذي كانوا يملكون إلى غيرهم!!

والجهادُ ثلاثةٌ: جهادٌ بالنَّفس، جهادٌ بالمال، جهادٌ بالدَّعوة والعلم، فإذا اجتمعت الثَّلاثة، فذلك ما ينبغي[1]، وإذا عُجزَ عن واحد منها طُلب المقدورُ عليه، ولا أحسب أنَّه يأتي يومٌ على الأُمَّة تعجزُ فيه جميعها عن جميع أنواع الجهاد، فلا بدَّ وأن يصيب نوعٌ من هذه الثَّلاثة –مهما بلغت الأُمَّة من ضعفٍ– حظّاً ما من جُهدِها باجتماعها، أو بتفرُّقها.

وهذا مِمَّا لا يُقعد الأُمَّة باليأس –أو بالعجز– عن الجهاد يوماً من الدَّهر، لكن عليها أن تنظر: أيُّ نوع من هذه الأنواع الثَّلاثة هو المقدور عليه؟ حتى إذا ما استَيقنَت أنَّ واحداً فقط هو المقدورُ عليه دون الاثنين الآخرين، فحينئذٍ يكون هو الواجبَ عليها، وإذا ما سعت إلى الآخر، وهو غير مقدور عليه، وأصابت به من شرٍّ، أو فتنةٍ؛ فإنَّما هي

---

[1] () وهذا ما يجتمع إلا في إمام عامة.

مؤاخذةٌ بذلك.

ومن الواضح، أنَّ الجهد بالمال، أو بالدَّعوة والعلم، مقدور عليهما، حتى في حال غياب الأمير (الخليفة)، أمَّا الجهاد بالسَّيف؛ فلا يكون إلَّا بإمام يندب النَّاس إليه، ويأمرهم به، ويجمعهم عليه، وقد علمنا أنماطاً فريدةً -حفظها لنا التَّاريخ- من العلماء، فاقوا الملوك والأُمراء عزَّاً، وَظَفراً، وبأساً، وملكوا قلوبَ النَّاس من غير قهرٍ ولا سلاحٍ[1] ، وسعت إليهم الأُمَّة في طواعية وحبٍّ، لم يكن بدٌّ معه أن يَستصغر الملوك والأمراء في زمانهم شأنهم معهم، وأن يَجدوا في سيرتهم مرتعاً خِصباً مُمرعاً، يقبسون منه الورع والزُّهد والاستقامة على الأمر، فكان أن أخذ عنهم أولئك الملوك والأمراء علماً عمليَّاً، ألَّف بين قلوبهم، وأودعها مودَّةً صادقَةً، نفرت منها العداوة والبغضاء، ومالت بهم جميعاً إلى قولٍ من أحسن قوله صلى الله عليه وسلم: «خير أمرائكم الذي تحبُّونهم ويحبُّونكم، وتُصلُّون عليهم ويُصلُّون عليكم»[2].

ولا يخفى على ذي لُبٍّ، أنَّ الجهاد بالسَّيف هو أعلى المراتب، وأوفرها نصيباً من الجهد الذي يبذل في الجهاد، ويستغرق نوعي الجهاد الآخرين: الجهاد بالمال، والجهاد

---

1 () من هؤلاء الإمام العالم الرباني الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رحمه الله.

2 () رواه مسلم عن عوف بن مالك.

بالدَّعوة والعلم.

ثم إنَّ الجهاد بالسَّيف قد يقتضي أن يخرج المجاهدون من داخل أرضهم إلى أرض أُخرى، قريبةٍ أو بعيدةٍ من أرضهم.

كلُّ هذه الأمور يجب أن تجتمع خيوط مسؤوليَّتها في يدٍ واحدةٍ، ليكون التَّقدير فيها أحكمَ وأوضحَ وأسلم.

وهذا ما تفرضه طبيعة قانون المدافعة –وسنفرده بمبحث مستقل– الذي وضعه الله في النَّاس؛ ليكون عوناً لهم في شؤون حياتهم، خاصِّها وعامِّها، فإنَّ طبيعة القوانين التي وضعها الله ليسير الكون بوفقها أنَّها لا تعمل بذاتيَّة الأشياء الموضوعة لها، إلَّا إن نُفِّذت على الوجه الذي وضعه الله سبحانه لها.

وجعل الله سبحانه نفاذَ هذه القوانين في خلقه بأسباب ظاهرٍ للنَّاس وفيهم، ومن هذه الأسباب الظَّاهرة حركة الإنسان بين الأخذ وبين الرَّدِّ، وفق ما تمليه هذه القوانين.

وقانون المدافعة موكولٌ نَفاذه في النَّاس لهم دون غيرهم، والإنسان –بما وهبه الله من إدراكات– يملك التَّعامل مع قانون المدافعة، فإذا ما أراد الإنسان تعطيل المدافعة يمضي على وجهه لما خلقه الله له، ويبوء من يريد تعطيله بالإثم والمذمَّة في الدُّنيا والآخرة.

والجهاد الذي جعله الله سبحانه من الأسباب التي تجري في فَلَكِ قانون المدافعة هو منه، وبه، وفيه، وقانون المدافعة يقضي بأنَّ الجهاد لا بدَّ وأن يكون مأذوناً به من إمام عامَّةٍ، فإن أذن على نحو ما بيَّنا سابقاً، وإلاَّ فهو آبقٌ إلى إثمٍ، غادٍ إلى عذَابٍ، رائشٌ لنفسه سهماً من غضبِ الله يجأ به صدره!!

وكما أنَّ تعطيل الجهاد المقدور على أسبابِهِ من إمام عامَّةٍ مُؤذِنٌ بفساد حياة الأُمَّة، مُذْهِبٌ هَيْبَتَها، مذلُّها لعدوِّ الله وعدوِّها؛ فكذلك أيلولته إلى غير وليِّه (إمام عامَّة) ملحقٌ الفساد بالأُمَّة، مضعفٌ شوكتها، زائدٌ في فُرقتها، لأنَّ لكل أمير –إن كان أميرٌ– شأناً يختلف فيه عن غيره، وتقديراً وتفكيراً يباين فيهما سواه، ورؤية تعكس إرادته لا يتَّفق فيها مع الأخرين.

إذاً؛ فأين تقع المصلحة الشرعيَّة، التي تتحقَّق من وراء هذا النَّمط من الجهاد؟! وإن كنَّا لا نُؤثِّم من طابت سريرته، وصدقت نيَّته فيه على الرُّغم ممَّا رأينا من نتائج الجهاد المتعدِّد الأمراء، الكثير الرَّايات، المختلف القيادات «ما شابت له منَّا العَثانين»، أهونها: صنائع المجد (!!) التي كانت صدور هؤلاء المجاهدين مثوى لحرابهم التي كانوا قَد شرعوها أوَّل ما شرعوها في وجوه أعداء الملَّة (!!!) أظنُّ قادَة المجاهدين –الذين أخذ كلٌّ منهم برايةٍ– يعلمون لك جيِّداً (!!) فإنْ كانوا لا يعلمون إلاّ بالتَّصريح،

فإنَّنا نُمسك عنه، خشيةً ممَّا يزيدُ منهُ في أحزاننا، وآلامنا!!

وبعد؛ فإنَّ الجهاد لا يفتح بابه، ولا يرفع رايته، ولا يأذن به ويدعو إليه، إلَّا إمامٌ واحدٌ، رضي من رضي، وكره من كره، صوناً للأُمَّةِ، وحِفظاً لِقَناتِها.

أمَّا الجهاد بالمال، ببذله في وجوه البرِّ والمعروف المختلفة، وإغاثة الملهوفين به، ورفع ضوائق الذُّلِّ والاستضعاف عن المعذَّبين، ومدِّ يد العون إلى الذين لا يمسكون بأيديهم إلّا على الفقر، وغير ذلك مِمَّا حثَّ الله عليه، ورغَّب فيه، فيمكن أن يكون ذلك من غير إمام عامَّةٍ، ولا إذنٍ منه، ولا حثٍّ ولا ترغيبٍ فيه، فإنَّ في ترغيب الله فيه، وحثِّه عليه في كتابه وفي سُنَّة نبيِّه صلى الله عليه وسلم ما يكفي لأن يُسارع إليه المسلمون من غير إبطاء ولا تردُّد، وهذا الجهاد هو جهاد الأغنياء، ذلكم أن أي عمل من أعمال الخير التي أمر الله بها العباد مرهون نفاذها بالاستطاعة عليها أو الاستطاعة في فعلها، وعدم ترتب فساد أو شر في القيام بها.

ومثل الجهاد في ذلك الجهاد بالعلم، وأظهر ما يكون الجهاد بالعلم في الأمر بالمعروف وفي النَّهي عن المنكر، وفي نشر العلم الصَّحيح وتعليمه النَّاس، وبناء العقيدة في القلوب، وتشييد بناء الأحكام والفروع في العقول.

وهذا هو جهادُ العلماء والدُّعاة.

والعلماء والدُّعاة ليسوا في حاجةٍ إلى إذنٍ من أمير عامَّة، يأمرهم أن يبذلوا علمهم، وينشروه في النَّاس، ويُقوِّموا عقائدهم، ويُصوِّبوا ما تعلَّموه على غير دليل من كتاب وسنَّة، ليكون على وفقهما.

وعلى مثل هذا الفقه البصير يكون الجهاد الذي اراده الله من الأُمَّة، تصان به الأرواح، وتُحمى به الدِّيار، ويُدرأُ به الشر، ويُجلب به الخير، ويُنصر به الدِّين، ويُذاذُ به عن العِرْضِ، وتُحفظُ به الأموال والأنفس.

والله سبحانه لا يكلِّف نفساً إلاَّ وُسعها، وإذا وقف المسلم عند حدود ما يُطيق أصابَ حُكمَ الله، وأدَّى ما يُؤمر به على الوجه المُراد شرعاً، فإن جاوزه؛ فقد أصار نفسه إلى ما لا تُطيق، وحمَّلها ما لا يستطاع، ويكون بذلك قَد أتى شيئاً لم يأذن به الله سبحانه، وما ينبغي للمؤمن إلاَّ أن يكون عند ما شرع الله وحده، وبلَّغه الأُمَّة نبيُّه صلى الله عليه وسلم؛ {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُواْ إِلَى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} [سورة النور: آية 51].

ومجاوزة حدِّ ما شرع الله –في أيِّ أمرٍ –لا يكون مخالفةً يأثم بها المُخالفُ فحسب، بل إنَّها تُحْدِثُ في الأُمَّة من السُّوء بالقَدْرِ الذي وقعت فيه من المخالفة، بمجاوزتها الحدَّ الموضوع لها.

وقد رأينا ما أصاب الأُمَّة مِن بلاءٍ وسوءٍ حين لم تقف مع قانون المدافعة، الذي وضعه الله؛ لتُجاهد على وَفْقِه، وتُلْزِمُ نفسها الأسبابَ التي بها تؤدِّي حقَّ قانون المدافعة الإلهي، الذي فرضه الله سبحانه عليها، في غير حماسةٍ طاغيةٍ، ولا إبطاءٍ متعثِّرٍ.

ومِمَّا يُحزن النَّفس حقَّاً، أنَّ طغيان الحماسة الدِّينيَّة التي لا تقوم على فقهٍ سليمٍ، أخرج الأُمَّة عن دائرة الصِّدق حتى مع النَّفس، وأولجهم تيهاً شرَدت فيه أبصارهم، وضلَّ فيه صبرهم، وتمارى فيه جهلهم، فإذا هم طوائف شتَّى، وجماعات مختلفة، يلعن بعضها بعضاً، ولا تذكر الواحدة للأخرى إلَّا ما يبرأ منه إبليس، ويستخفي منه حياءً!! ولا تُضمرُ لها إلّا سوءاً تراه من جهلها وسوءِ ظنِّها قرباً زُلفى إلى الله عياذاً بالله، وكل واحدةٍ منها تظنُّ بنفسها أنَّها على هدىً وبصيرةٍ، ولا أحسب حالَ الفِرَق التي أخبر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أنَّها ستكون في الأُمَّة، بأسوأ من حال الجماعات والطَّوائف، الموجودة اليوم –وكلُّها تَدَّعي أنَّها من أهل السُّـنَّة والجماعة!–، ألا إلى الله وحده المشتكى، ومنه العياذ، وفيه وحده الرَّجاء.

ويحسنُ أن لا يفهم أحدٌ من القرَّاء أنَّني أدعو إلى تعطيل فريضة الجهاد في هذا الوقت، والأُمَّة تذوق من الهوان المرِّ، والذُّلِّ المهين، والبلاء الوبيل، ممزوجةً

جميعها في كأسٍ واحدةٍ تُقطِّع أمعاءَها، وتشوي أجوافها، وتُذيب أكبادها!!

إنَّ من يقول بتعطيل فريضة الجهاد في أيِّ وقتٍ من الأوقات، يسقي نفسه من سوءِ العذاب ما يسقيها، وفرقٌ واسعٌ جداً بين من يقول بتعطيل فريضة الجهاد، وبين من يقول: يجب الإعداد الصَّحيح لها، ولو استغرق هذا الإعداد سنينَ طويلةً؛ لأنَّ في الإعداد امتثالاً لقوله تعالى: {وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ الله يَعْلَمُهُمْ} [سورة الأنفال: آية 60].

ومَن أنعَمَ النَّظر في هذا النَّص يرى أنَّه يكاد ينطق بوجوب الإمساك عن الجهاد حتى يكون الإعدادُ على تمامه –وقد يكون من الإعداد تَرْكُ الإعداد– إذ الإعداد يُقصد به إرهاب أعداءِ الله، وأعداءِ المسلمين، وإذا لم يتمَّ على الوجه الذي يُدخل الرُّعب في قلوبهم، ويؤرِّقُ عليهم مضاجِعهم، وينفي الرَّاحة والاستقرار والأمن عنهم، فليس هو الإعداد المطلوب، وإلَّا فما معنى قوله : {تُرْهِبُونَ}؟!

والإعداد يكون بالوسائل الشرعيَّة التي تحقِّق الغاية منه، وهو: إرهاب الأعداء، وهو أقلُّ غَرَضٍ من أغراض الجهاد، فكيف، وليس لدينا من الإعداد ما يكفي أن نرفع أصواتنا بذكر لفظ إرهاب الأعداء؟

أضف إلى هذا، أنَّ الإعدادَ اليومَ غيرُه بالأمس، فإعدادنا: وسائله، وآلاته، ومادَّته، كلُّها بيد أعداء الأُمَّة في الحقيقة والواقع، وإن قالوا ووصفوا أنفسهم أنَّهم أصدقاؤنا !!فَبِيَدهِم كل ما تملك الأُمَّة من آلة الحرب التي دفعت الأُمَّة ثمنها من مالها الذي لا تملكُهُ إلَّا بحفظ الأرقام، وكل قطعة سلاح، أو سيَّارة، أو دبَّابة، أو طائرة، أو مدفع، أو غير ذلك، محصاةٌ بالعدد، والرَّقم، والنَّوع، والوصف، فهل يُتصوَّر عقلاً أن نُرهِب عدوَّنا بما نملك وهو ليس ما نملك؟ وسيَّان عنده ما نملك وما لا نملك!

وليس يُنبيك عن حالٍ مثل لسان الحال! فهل لنا أن نسأل حالنا عمَّا حلَّ بنا وأحالنا إلى حالٍ يضحك منه عدوُّنا، ويُريحهُ من التَّفكير في أمرنا؟!!

ولك أن تستقرىء الآيات التي جاءت مكمِّلةً لآية الأمر بالإعداد وموضِّحةً، لتعلم أنَّ أفضل الجهاد اليوم –في وَهننا الذي نحنُ فيه– هو الإمساك عن الجهاد، وهذا –ولا ريب– عندي هو من الإعداد الذي تُوَفَّرُ فيه الجهودُ إلىماهو ممكنٌ ومقدورٌ عليه من أنواع الجهاد، حتى تصير مفاتيح خزائن سلاحنا بأيدينا نفتحها متى نشاء، ونغلقها متى نشاء.

قال تعالى: {يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً} [سورة التوبة: آية 123]، وقال: {يأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ}

[سورة التوبة: آية 73]؛ وهل تكون غِلْظةٌ وإغلاظٌ في الجهاد على الأعداء إلَّا بالإعداد الذي يكافىءُ –بما يُضاف إليه من أسباب ووسائل– إعداد الكُفَّار والمشركين أعداء الله وأعداء الأُمَّة، أو يقاربه؟!

أترك الجوابَ لمَن يُحسنُ الجوابَ!!

الدِّين قِشرٌ وَلُبــابٌ

كلمةٌ جَرَت بها ألسنةُ مشاهير الدُّعاة، وردَّدتها حناجرُ الخطباء، وتناقلتها –في الكتب والرَّسائل– أقلامُ المفكِّرين والعلماء (!) وما كانت لتكون من هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء، لو أنَّهم لم يكونوا ينقمون على إخوان لهم تجمعهم بهم كلمةُ التَّوحيد، التي لا يَختلِفُ على معناها، ولا يَضِلُّه ولا يَهيدُهُ، إلاَّ من طمس الله على قلبه، وغشاه بظُلمةِ الباطل، وأخنى عليه بِشِقوَتِهِ.

هؤلاء الإخوان لا يُفرِّقون في أخذهم الكتابَ والسُّـنَّة، بين الواجب وبين المندوب في العمل، ولا بين المكروه وبين الحرام في التَّرك، مُمْتَثلين في ذلك قولَ الله سبحانه: {لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا} [سورة البقرة: آية 286]، وقول نبيِّهم صلى الله عليه وسلم: «... فإذا أمرتكم بشيءٍ فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيءٍ فاتركوه»[1] فهل في قول الله وقول نبيِّه هذين ما يبيح أو يأذن لنا أن نقول: إنَّ في الدِّين قشراً ولباباً؟

إنَّها مقولةٌ رابيةٌ بالشر، مترَعةٌ بالجهل، عاقدةٌ خِنصرَها على سوءٍ ومكر.

---

[1] () سبق تخريجه.

ولكي يَزداد هذا المَبحث بياناً ووضوحاً أقولُ:

إنَّ الأُمَّة التي لا تعرف قَدْرَ نفسها هي التي تجعل من مقوِّماتها الموروثة حقلاً للتَّجارب، تعبث به العقول والأقلام، لينتهي الأمر إلى التَّفريط فيها، إمَّا بتغييرها، وإما بسلخها عن ماضيها، حتى إنَّ النَّاظر إليها ليكادُ يظنُّها –وهي أشياء متناثرة مقطَّعة– بعضاً من أجزاء الأرض التي لا قيمة لها، تمتدُّ إليها يد الإنسان لإزالتها وإخفائها.

والأُمَّة المسلمة أغنَت نفسها في الماضي بولائها لدينها –وهو أعظم مقوِّمات وجودها– والتصاقها بعقيدتها، وإسباغها على نفسها ثوبَ الإيمان الذي صنعه لها نبيُّها صلى الله عليه وسلم بوحي من ربِّه، وألبَسها إيَّاه لتكون أُمَّةً ممتازَةً من سواها من الأُمَم.

ولَقد ظلَّت الأُمَّة المسلمة قويَّة في نفسها، قادرةً على العطاء قروناً طويلة رغمَ ما اعتراها من ضعفٍ في فتراتٍ متقطِّعةٍ من تاريخها، كان دينها يُقصي عنها هذا الضَّعف، وتمضي به إلى غايتها تشيدُ المجد والعزَّة لنفسها والأمن والسَّعادة لغيرها.

فلمَّا أن خالفت الأُمَّة عن دينها، ونزعت ثوب إيمانها، وأزهقت الميراث الذي آل إليها من السَّابقين الأوَّلين، لم تعد قادرة –ليس على العطاء– بل على التَّماسك والثَّبات في و جه رياح الفكر التي تهبُّ عليها بين الحين والآخرَ

من كلِّ الآفاق والأقطار، تنزعها من بقايا مقوِّماتها التي صارت تشبه الأحلام المختلطة، وتحكي الرُّؤى الواهمة، حتى إنَّ الأجيال القادمة سوف لا تراها -لا أحلاماً مختلطة، ولا رُؤىً واهمة- بل ستكون في أعينها سراباً مضطرباً بِقيعةٍ، يُقطِّع أنفاسها، ولا تدرك منه ريَّاً لظمئها.

وتذكيراً منِّي لشبابِ الإسلام وشيوخه، وعلمائه ودعاته، وأوليائه وأعدائه معاً، أودُّ أن أذكِّرهم بحقيقة من الحقائق الكلِّية الكُبرى التي وضعها لنا نبيُّنا مُحمد صلى الله عليه وسلم بقوله: «مَن أحدثَ في أمرنا هذا ما ليسَ منهُ فهو ردّ»[1]، ولقد رأينا الكثيرين اليوم يُقصي هذه الحقيقة عمداً أو غفلةً وجهلاً، أو أنَّهُ لينساها، حتى لكأنَّ قائلها ليسَ النَّبيَّ المعصوم صلى الله عليه وسلم، فصارَت تُحدِث أشياء، وتغيِّر أشياء، وتقدم وتؤخر أشياء وأشياء، فكانوا بذلك كأهل الكتاب، الذين قال القرآن فيهم: {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً} [سورة البقرة: آية 79].

بعد هذا البيانِ أقولُ:

إنَّ ممَّا أحدث النَّاسُ في زماننا هذا مقولةً واسعةَ الأرجاء، ممتدَّةَ الأطراف، ليس لها بدايةٌ، ولا تُعرفُ لها نهايةٌ، زيَّنها في أعينهم العجزُ والجهلُ والهَوى جميعاً، تلكم

---

1 () متفق عليه عن عائشة.

هي: «على المسلمين اليوم أن يَدَعوا القشور ويهتمُّوا باللباب»!! أو بعبارةٍ أخرى: «أن يأخذوا المضمون ويتركوا الشكل»!! وصارت هذه المقولة شعاراً له أنصارٌ ودعاةٌ وأقلامٌ وصُحف ومناهج وعقول.

وبالرُّغم من كلِّ هذا الحشد الذي التفَّ حول هذا الشعار، فإنَّنا لم نجد حتى الآن ترجمةً واضحَةً له، أو تحديداً دقيقاً لمعناه، لذا: فإنَّني أجدني مُلْجَأً أن أُناقض هذه المقولة مُناقضةً علميَّةً، مطَّرحاً جانباً الحماسة العاطفيَّة، والانفعالاتِ الوُجدانيَّة، والسَّورات النَّفسيَّة، في فقرات متتابعَة آخذٍ بعضها ببعض.

أوَّلاً: إنَّ القائلين بهذه المقولة الحادثة، رغم تأكيدهم عليها، والإكثار من الحديث عنها، فإنَّهم لم يضعوا تعريفاً أو حدَّاً لما سمَّوه قشراً، أو لما يُسمَّى لباباً ينتهي إليه الرَّاغب في العمل باللباب وحده دون القشر، ولا أحسبهم واضعين، وهل من الحكمة أن يدعوَ واحدٌ أو جماعةٌ لشيءٍ ثمَّ لا يكونوا على بيِّنةٍ منه؟

ثمَّ كيف يستطيعُ هؤلاء أن يدْعوا غيرهم إلى شيءٍ وهم غير قادرين على تعريفه أو بيان حدِّهِ؟ أو لِنقُل: لم يَضعوا لهُ تعريفاً ولا حدَّاً حتى الآن، وقديماً قيل: «الحُكم على الشيءِ فرعُ من تصوُّره»، وإنَّ دعوتهم إلى هذه المقولة الحادثة، لا يمكن أن تصادف قبولاً في عقول النَّاس إذا كانوا هم أنفُسهم غيرَ قادرين على الحكم على

ما يدعون إليه.

هذا إن كانوا قادرين أيضاً على الإحاطة به تصوُّراً في أنفسهم أوَّلاً، أمَّا وهم غير قادرين على ذلك، فمن الخير والأجدى أن يصمتوا وأن يمسكوا عن مواصلة الحديث في هذه المقولة.

ثانياً: إذا كانَ الدَّاعون إلى هذه المقولة لم يضعوا لها تعريفاً ولم يرسموا لها حدَّاً، فلنضع نحن لها تعريفاً تقريبيَّاً -كما يُقال- ثمَّ لنَنظر، هَل يقوى هذا التَّعريف على الثَّبات أمام النَّظر العلمي المحض بما نورده في الفقرات الآتية، أو أنَّه لا يثبت. لنقل: «اللباب في المأمورات الشرعيَّة هو ما يدخل تحت الحكم الواجب، والقشر هو ما جاوز دائرة الحكم الواجب، أمَّا اللباب في النَّواهي فهو ما يدخل تحت الحكم الحرام، والقشر هو ما لم يتناوله الحرام الصَّريح في النَّواهي»، وعلى ذلك فالقشور في المأمورات: كلُّ مندوبٍ أو مُباحٍ، وفي النَّواهي المكروهات، وبذلك فإنَّه يجتمعُ لدينا من القشور ما يزيدُ على نصف الدِّين، ويبقى لنا من لبابه اقلُّ من النِّصف، فهل من الوَرع في الدِّين، أن ندع لعذر لا يُدرى مأتاه -إلا من جهل أو هوى أو غفلة- أكثر من نصف الدِّين قشوراً، لنأخذ أقلَّ من نصفه لباباً؟

ثالثاً: نسأل هؤلاء المفرِّقين في الدِّين بين القشر وبين اللباب إذا اتَّفقوا معنا على التَّعريف الذي أسلفنا،

أين يضعون بعض المسائل المختلف عليها بين الواجب والمندوب أو بين الحرام والمكروه؟ حسب التَّعريف الذي وضعناه لكلٍّ من اللباب والقشر، ففي الأوامر نأخذ مثلاً صلاة الوتر، فهي عند أبي حنيفة رحمه الله واجب يأثم تاركه، وعند جماهير العلماء –ومنهم الشافعي ومالك وأحمد رحمهم الله– سنَّة لا يَأثم تاركها ويُثاب فاعلها، ففي إيِّهما نضع صلاة الوتر، أفي القشر أم في اللباب؟

وفي النَّواهي نأخذ مثلاً شارب المسكر «من غير العنب»، فإنَّه لا يُجلد عند أبي حنيفة إلَّا إذا سكرَ وثَمِلَ، وعند الجمهور يجلد لمجرَّد شربه، وسواءٌ أكانَ المُسكر من عنب أم كانَ من غير العنب، ففي أيِّهما أيضاً نضع وجوب الجلد لشاربها أفي القشر أم في اللباب؟

وهناك أمثلة أُخرى كثيرةٌ تتعارض فيها آراءُ الفقهاء تعارضاً يجعل كلَّ رأي من الآراء المتعارضة على طرفَي نقيض مع الرَّأي الآخر، بحيث لا يمكن إسقاط هذا التَّعارض القائم بين هذه الآراء إلَّا بالوقوف عند الدَّليل القاطع الصَّريح من كتاب الله عزَّ وجلَّ، ومن صحيح سُنَّة النَّبي صلى الله عليه وسلم، وفيهما النَّجاةُ كلُّ النَّجاةِ لمَن أراد النَّجاة.

رابعاً: الله سبحانهُ أنزل دينه على نبيِّه صلى الله عليه وسلم ليبني به الإنسان المسلم، فيكون به سعيداً في الدُّنيا والآخرة، ولا يخفى على ذي عقل أنَّ كلَّ أمرٍ ونهي

من أوامر هذا الدِّين ونواهيه تسهم إسهاماً قوَيَّاً في بناء هذا الإنسان، سواءً أكانت من المَندوبات أم من المباحات أم من الواجبات، وسواءً أكانت من المكروهات أم من المحرَّمات، لأنَّ جميع هذه الأحكام هي شعب الإيمان التي قال فيها صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إلهَ إلَّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطَّريق، والحياءُ شعبة من الإيمان»[1]، فأيُّما شعبة نقصت منها كانت نقصاً من الإيمان، وأيُّما شعبة التزمها المسلم كانت زيادةً في إيمانه، لأنَّ الإيمان يزيد وينقص بالقول والعمل، وهو مذهب السَّواد الأعظم من الأُمَّة.

خامساً: يقول الرَّسول صلى الله عليه وسلم: «إذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»[2] والاستطاعة في إنفاذ الأمر إمَّا أن تكون في الفعل الواحد، كالصَّلاة مثلاً، فإذا لم يستطع المسلم أن يصلِّيها وهو قائم، وجب عليه أداؤها على الوجه الذي يستطيعه من قعودٍ أو اضطجاع أو غير ذلك.

وإمَّا أن تكون الاستطاعة في مجموع الأفعال، فقد لا يستطيع المسلم أن يصوم لمرض، في حين يكون قادراً على أداء الصَّلاة على كلِّ حال، فوجبت الصَّلاة في حقِّهِ،

---

1 () رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة.

2 () سبق تخريجه.

وسقط عنه الصِّيام إن كانَ مرضاً مُزمناً، وإلَّا صام حين شفائه، وقد لا يقوى المسلم –لعذر من الأعذار– أن يصلِّي في المسجد، وهو مأمورٌ بأدائها فيه، فلا يقال ما دام أنَّهُ لا يستطيع أن يصلِّيها في المسجد فلا يصليِّها، بل يُقال: يفعل ما يقدر عليه، ويُعذر فيما لا يقدر عليه.

أمَّا المنهيَّات، فقد أمر النَّبي صلى الله عليه وسلم أمَّته أن تجتنبها كلَّها، من غير فرقِ بين واحدٍ وواحدٍ، فكما أنَّهُ نهى عن الزِّنا، فإنَّه نهى عن النَّظر المحرَّم إلى المرأة، وكما أنَّه نهى عن شرب الكثير من الخمر فإنَّه نهى عن شرب القليل منها، وكما أنَّه نهى عن سرقة المال الكثير، فإنَّه نهى عن سرقة الدِّرهم والدِّرهمين، وكما أنَّه نهى عن الكذب على الأُمَّة كلِّها، فإنَّهُ نهى عن الكذب على الرَّجل الواحد، وكما أنَّه نهى عن أن تكشف المرأة عن جميع جسدها، فإنَّه نهى أن تكشف عن صدرها أو عن ساقها أو عن أيِّ جزءٍ من بَدنها، فلا يقال هنا: يجتنب ما يستطاع اجتنابه، بل يجب اجتناب كلِّ ما نهى عنه، ولا يعفى إلَّا عن النَّاسي أو المخطيء أو المُكْرَه.

سادساً: ما صحَّت روايته عن أبي سعيد الخُدري رضيَ الله عنهُ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال:

«لا يَمْنعنَّ رجلاً هيبةُ النَّاس أن يقول بحقٍّ، إذا عَلِمه أو شهِدَه أو سمعهُ»[1] .

---

[1] () رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم وأحمد بسند فيه ضعف،

هذا الحديث ألمَّ بكلِّ ما يخطر بالبال من قشور ولباب، ولم يفرِّق الرَّسول صلى الله عليه وسلم فيه بين شيء وشيء، فمن رأى أمراً يُخالَفُ فيه حكمُ الشرع، ويُجانِبُ فيه فاعلهُ الحقَّ –سواء أكان قشراً أم لباباً– فحقٌّ عليه أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر، فإن سكت خشية أن يتَّهمه النَّاس مثلاً بالتَّعصُّب، أو التَّزمُّت، أو الاهتمام بالسَّفاسف من الأشياء، أو مخالفة العُرف السَّائد، أو الخروج على مألوف النَّاس، أو تساهلاً وإعراضاً، أو تجنُّباً لنقد النَّاقدين، أو لئلا يقال: إنه لا يعرف حقَّ العصر، أو إنَّه خارج على مألوف النَّاس، أو غير ذلك من الأعذار التي لا تُقبل عند الله سبحانه؛ فهو آثمٌ يستحقُّ الذَّم والعقوبة من الله، كما وصفه الرَّسول صلى الله عليه وسلم.

سابعاً: أسال المفرِّقين بين القشر وبين اللباب، هل شيءٌ من القشر لا يدخل في دائرة الأحكام الخمسة؟ ولعلَّهم لا يخطئون! إذاً فليقولوا قولاً سديداً: إنَّ اللباب والقشر جميعاً لا يخرج عن دائرة الأحكام الخمسة، وإذا كان ما قالوا صحيحاً وحقَّاً، فإنِّي أُذكرهم بمعنى الحكم الشرعي، وهو: «خطاب الله تعالى المتعلِّق بأفعال المكلَّفين على سبيل التَّخيير أو الطَّلب تركاً أو فعلاً»،

لكن له متابعاتٌ وطرق تقوِّيه، انظرها في «السلسلة الصحيحة» (168).

وهل يجوز أن يسمَّى شيءٌ من أحكام الله تعالى قشراً على سبيل الاصطلاح كما افترضنا؟ أو على سبيل التَّهوين والغضِّ مجرَّداً لا لشيء إلاَّ لظنٍّ فاسد؟ لا أحسبُ أحداً يؤمنُ بالله واليومِ الآخر يُجيزُ مثلَ هذا، وهو يعلم أنَّ الله قَد أتمَّ النِّعمَة على المؤمنين، فأكمل لهم الدِّين: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} [سورة المائدة: آية 3]، فكانوا بذلك خيرَ أُمَّة {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [سورة آل عمران: آية 110].

ثامناً: لست أقول بأنَّه لا تكون أولويَّات في الدَّعو، فلا يتقدَّم شيء على شيء، فمثلاً إذا رُئيَ إنسانٌ يعاقر الخَمر وهو تارك للصَّلاة، فإنَّه يدعى إلى الصَّلاة أوَّلاً لأمرين اثنين:

1- أنَّ إثمَ شرب الخمر لا يبلغ إثمَ ترك الصَّلاة.

2- أنَّ فعل الصَّلاة يعين على ترك المنكر؛ كما قال الله تعالى: {إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [سورة العنكبوت: آية 45]، لكن هذا ليس بمانع الدَّاعية في الوقت نفسه، إذا رأى إنساناً مُرتكباً إثمين، أن يقدِّم الأصغر على الأكبر منهما، إذا كانَ مرتكبُهما أدنى إلى الاقتناع بترك الأصغر قبل الأكبر، فالدَّاعية هو الذي يستطيع أن يحدِّد الأهم من الأمرين، أو من الأُمور جميعاً، وقد كانَ النَّبي صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك مع

أصحابه، فكان إذا رأى آحاداً منهم، يفعل كلُّ واحدٍ منهم شيئاً أو يترك شيئاً، لا يدعه يمر إلاَّ وأمر هذا ونهى هذا، حرصاً منه على أن ينال كلٌّ منهم الخير وإن كانَ قليلاً، وأن يعلِّم كلاًّ منهم علماً نافعاً يحرصُ علىتبليغه النَّاسَ، فيناله فضلُ إبلاغ الدَّعوة، الذي أمر به النَّبي صلى الله عليه وسلم: «بلِّغوا عنِّي ولو آية، فربَّ مُبلَّغ أوعى من سامع»[1]، ودعا بالرَّحمة لمَن فعله: «رحم الله امرءاً سمع مقالتي فبلَّغها كما سمعها»[2].

ولا يقال هنا: إنَّ مجتمع الصَّحابة مختلفٌ عن مجتمع المسلمين اليوم، فكلُّ مجتمع في حاجة إلى الدِّين كلِّه؛ آدابه، ومعاملاته، وعباداته، وعقائده، وانتقاصُ أيِّ أمرٍ من هذه الأُمور هو انتقاصٌ من الدِّين والإيمان، ولا يُزيله إلاَّ الرُّجوعُ عنه، وقد أخبر النَّبي صلى الله عليه وسلم بما سيكون من شأن الأُمَّة مع دينها، ونقضها عراه، فقال: «لتُنقَضَنَّ عُرى الإسلام عُروة عُروة، فكلَّما انتقضت عروة تشبَّث النَّاس بالتي تليها، وأوَّلُهنَّ نقضاً الحُكم، وآخرهنَّ الصَّلاة»[3].

تاسعاً: إنَّ التَّفريط في الأمر الصَّغير يؤدِّي إلى التَّفريط في الأمر الكبير؛ لأنَّ استمرار هذا التَّفريط

---

1 () رواه البخاري عن ابن عمرو.

2 () حديث متواتر.

3 () رواه أحمد وابن حبان والحاكم عن أبي أمامة بسند صحيح.

ينشىءُ في الإنسان عادة تنتهي به إلى التَّهاون فيما يفعل، والأمَّة كلُّها تعلم أنَّ هناك كثيراً من عرى الدِّين وأحكام الإسلام مَقصِيَّةٌ عن واقعهم، ولا يُستطاع الوصول إليها أو التَّحدُّث عنها، وبعض هذه العرى ممَّا يترتَّب عليه إقامة حكم الله في الأرض، وحماية بيضة الإسلام، فهل من الحكمة والإيمان معاً أن يَتْرُكَ الدَّاعية الدَّعوةَ إلى ما بقي مِن عرى الدِّين وأحكام الإسلام –وأغلبها ممَّا يدخل في عداد القشور بِزَعمهم– بعذر أنَّه لا يقدر على هذه أو تلك منها؟ إنَّه لقولٌ عجابٌ، وأي الأمرين يكون أحسن، أن يدع القادر على البعض، هذا البعض المقدور على فعله، البعض غير المقدور عليه أو أن يَدع غير المقدور عليه للمقدور عليه فيفعله؟!

عاشراً: وأخيراً؛ فإنَّ هذا التَّفريق لم يُعرف في سلف الأُمَّة من الصَّحابة والتَّابعين وتابعيهم بإحسان، فقد كانوا أحرص النَّاس على الاستجابة لكلِّ أمرٍ فيفعلونه، وعلى كل نهيٍ فيجتنبونه، تحقيقاً في أنفسهم لقوله صلى الله عليه وسلم: «إذا أمرتكم بأمرٍ فأْتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»، فهو أمرٌ حادثٌ، وكانوا أشد النَّاس نُفرةً من الحوادث؛ لأنَّها بدع، وكلُّ بدعة ضلالة، وكلُّ ضلالة في النَّار.

بل لقد بَلغَ من خوفهم من المخالفة عن الدِّين، وتحرِّيهم امتثال أحكامه، أنَّهم كانوا يَدَعون كثيراً من

الحلال خشية الوقوع في بابٍ واحدٍ من أبوابِ الحرام.

لقد نشأت هذه المقولة الحادثة من خضوع العقل المسلم للثَّقافات الغريبة التي أخذت عليه أقطاره، وسدَّت عليه طرائقه التي وصلت به من قبل إلى الهدى والحق، وخير الهَدي ما استقرَّ عليه الأمر في القرون المفضَّلة الأولى التي عاشت بالإسلام كلِّه عقيدة وشريعة.

فلْيَسَعْنا ما وسع هذه القرون، وَلْنمْض في الطَّريق الذي مضوَا فيه، وليكن منهاجُنا قوله تعالى : ﴿فَاتَّقُواْ الله مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: آية 16]، وقوله سبحانه: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ...﴾ [سورة هود: آية 112].

ولنعْلَم أنَّ من الطُّغيان –وهو مجاوزَة الحدِّ– الانتقاصَ من الدِّين في العمل، كما هو زيادّةٌ على الدِّين فيه، وقد حذَّرنا الله سبحانه من ذلك بقوله : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة النور: آية 63].

هل البِدعةُ بِدعتانِ حَسَنةٌ وسَيِّئَةٌ؟

وإذ قَد استَوفَينا القول في مقولةٍ عصريَّةٍ حادثَةٍ، وهي: الدِّين قشرٌ ولُبابٌ، وما أكثر الحوادث التي حطَّت فوق أرضِ الإسلام، وأرادتهُ بالسُّوء والشرِّ على عقيدته وشريعتِه، كلُّ واحدةٍ منها حين تُقبِلُ في النَّاس، تفتح الباب للمئات والعشرات من البدع، ويصبح عسيراً على مُريد الإصلاح أن يدفعَ في صدورها لكثرتها، وكما قيل: «الكثرة تغلب الشجاعة»!!

فَمن الخير أن نصنعَ في هذه المقولة وهي: «البدعة بدعتان سيِّئة وحسنة» ما صنعناه في المقولة السَّابقة لها، فمن شرِّ البدعَة أو سوءِ الابتداع في الدِّين، أن يُسكتَ عن باطلٍ يُرادُ فيه، أو أن يخلَّى في الرَّدِّ بين من لا يُحْسِنُ الرَّدَّ والجواب، وبين هذه المقولة أو غيرها من المقولات المُفتراة على الإسلام وأهله.

وقَد ضلَّت الأُمَّة الطَّريق الأقومَ، وأزاغَتها البدعُ الحادثةُ فيها عن الحقِّ الأبلجِ، وصيَّرت نفسها إلى غرب الهوى، تَهوي بها وتصعدُ في لجَّةٍ ظلماءَ صاخبةٍ، حين تُرِكَت البدع النَّكراء الشَّوهاء، تَصول وتجول في أرضها، تستقي من نَمير مائها وتأكلُ من طيِّب ثمرها، وتُبهج

نواظِرَها من حسن رُؤاها.

فأصبحت وإذا هي ترعى في أرضٍ جرداء، لا عشبَ فيها ولا ماءَ، ولا ظلَّ ولا هواء، تتقطَّع فيها أنفاسها، ولا تَغدو إلَّا على مسغبةٍ، ولا تُمسي إلَّا على مثل ما غَدَت، وكلَّما أهاجها الحنين إلى سيرتها الأولى، أفقدها لُغوب الحياة الدُّنيا، ورَتْعُها في زينتها، وشغُلها في أحوالها وشؤونها، عن إعمال النَّظر في تلك السِّيرة، وإذا هي قد أخذت في العَودِ قَهقرى، عقوبَةً على طائفةٍ من الذُّنوب ألمَّت بها، بحرصها على الإمساك بأذناب البدع، والعضِّ بالنَّواجذ على المحدثات.

والله سبحانه الذي أبدع السَّماوات والأرض على غير مثال سابق؛ أنزلَ للنَّاس بوحيه تشريعاً يحقِّقُ للبشريَّة سعادتها الدُّنيويَّة والأُخرويَّة على غير مثال سابق في التَّشريع والحكمة، لكن هذه السَّعادة لا تتحقَّق للنَّاس من خلال هذا التَّشريع الإلهي إلَّا بأمرين اثنين:

الأوَّل: إنفاذ هذا التَّشريع في إخلاص وطواعية.

الثَّاني: إنفاذه على الوجه الذي أنزله الله سبحانه من غير زيادة ولا نقص.

وقد حفل القرآن الكريم والسُّـنَّة النَّبويَّة المطهَّرة بالآيات والأحاديث تدلُّ على ذلك؛ من هذه الآيات الكريمة قوله سبحانه: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ

وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً} [سورة النساء: آية 65].

ومنها قوله سبحانه : {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [سورة الأنعام: آية 115].

ومنها قوله سبحانه: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُواْ إِلَى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [النور/51].

ومنها قوله سبحانه: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} [سورة الحشر: آية 7].

ومنها قوله سبحانه: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} [سورة المائدة: آية 3].

... إلى غير ذلك من الآيات المحكمة.

ومن الأحاديث النَّبويَّة قوله صلى الله عليه وسلم: «تَركتُ فيكم شيئين لن تضلُّوا بعدهما؛ كتاب الله، وسنَّتي، ولن يتفرَّقا حتّى يردا عليَّ الحوض»[1].

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: «مَثَلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً، فجعلَ الجنادب والفراش يقعْنَ فيها، وهو يذبُّهن، وأنا آخذ بحُجزِكم عن النَّار، وأنت تفلتون

---

1 () رواه الحاكم والبيهقي عن ابن عباس بسند حسن.

من يدي»[2].

فهذه النُّصوص وغيرها قاضيةٌ بأن يَقِفَ الإنسان عند حدود الشريعة، لا يتجاوزها، ولا ينتقص منها، وإلَّا كان ظالماً نفسه؛ قال تعالى : {وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} [سورة الطلاق: آية 1]، وقال تعالى: {وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [سورة البقرة: آية 229]، فلا يملك الإنسان حيال هذه النُّصوص إلَّا أن يقول: {سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [سورة البقرة: آية 258].

* الابتداع منازعة الله في حُكمِه:

والبديع اسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: موجد الأشياء وخالقها بحكمته، وتقديره على غير مثال سابق بكلمة (كُن)، فمَن يبتدع في دين الله شيئاً؛ فقد نازع الله أمره، وتسمَّى باسمه؛ لأنَّ الابتداع في الدِّين هو إحداث أمر في الدِّين زائد عليه، يقصد به التَّعبُّد، أو الزِّيادة في التَّعبُّد، فالمبتدع زائد في الدِّين ببدعته، محدث في الشرع ما ليس منه، فكأنَّه شَرَع أمراً لم يأذن به الله!

وقد ذمَّ الله سبحانه ذلك في كتابه، وعلى لسان نبيِّه صلى الله عليه وسلم؛ قال تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ

---

[2] () رواه مسلم.

شَرَعُواْ لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ الله} [سورة الشورة: آية 21]، وقال أيضاً موبِّخاً بعض الرُّهبان من أهل الكتاب : {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى اثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَاتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ الله فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} [سورة الحديد: آية 47].

* الرَّسول صلى الله عليه وسلم يَذُمُّ البِدعَة:

ومِمَّا جاء في ذمِّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم البدعةَ ما صحَّ عن العِرباض بن سارية قال: وعظنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم موعظةً بليغةً، وجِلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله! كأنَّها موعظة مودِّع، فأوصنا، قال: «أُوصيكم بتَقوى الله، والسَّمع والطَّاعة، وإن تأمَّر عليكم عبد حبشي، وإنَّه من يعش منكم؛ فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين المهديِّين، عَضُّوا عليها بالنَّواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ بدعة ضلالة».

وجاءَ في بعض طرق هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: «إنِّي تركتكم على مثل البيضاء؛ ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلاَّ هالك»[1].

---

[1] () الحديث –باللفظين– رواه أحمد وابن ماجه والحاكم بسندٍ

ومن ذلك أيضاً ما ثَبَت عن عائشة أمِّ المؤمنين رضيَ الله عنها أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَن عمل عملاً ليس عليه أمرنا؛ فهو ردٌّ»[1].

وفي رواية أُخرى[2] عنها رضيَ الله عنها أيضاً: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه؛ فهو ردٌّ»، أي :مَردود على مُحْدِثِهِ، ولا يقبل منه.

ومن ذلك أيضاً ما رواه[3] أبو هُريرة أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «كلُّ أمتي يدخلون الجنَّة إلاَّ من أبى»، قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟! قال: «من أطاعني دخلَ الجنَّة، ومن عصاني فقد أبى».

لقد وضعتْ هذه النُّصوص القُرآنيَّة والنَّبويَّة الإنسانَ أمامَ التَّشريع الإلهي، لتتبدَّى له أجمل صورة، وأروعها، وأبهاها، وأتمَّها، فلا يكون له فضل خيار في الميل عنها، أو لزومها، بل يستقر في عقله ووجدانه معاً أنَّه لا محيد له، فتنساب السَّعادة في صدره ونفسه، ثمَّ ينقلها إلى الآخرين ويُشيعها بينهم.

* حرصُ الصَّحابة والسَّلف الصَّالح على مجانبة البدعةَ:

حسن.

1 () رواه مسلم.

2 () رواه البخاري ومسلم.

3 () رواه البخاري.

وقد لزم الصَّحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم من أئمة الهُدى هذه المحجَّة البيضاء، نافحوا عن السُّنَّة والتَّشريع، فقضى منهم من قضى، وصبر منهم من صبر، فما غيَّروا وما بدَّلوا، وتركوا من ورائهم كلماتٍ بصيرةً؛ تهدي من يتبعها، وتخرجه من ظلمة الهَوى والغي إلى نور الحقِّ والهُدى، تصلُح كل واحدة منها أن تكون منهاجاً علميَّاً وعمليَّاً:

من تلكُمُ الكلمات كلمة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «اتَّبعوا ولا تبتدعوا، فقد كفيتم، عليكم بالأمر العتيق».

ومنها ما قاله ابن عبَّاس رضي الله عنهما يوصي رجلاً: «عليك بتقوى الله والاستقامة، اتَّبع ولا تبتدع».

ومنها كلمة لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «كلُّ عبادة ما يتعبَّدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلا تعبَّدوها، فإنَّ الأوَّل لم يدع للآخِرِ مقالاً»[1].

وإذا كان الصَّحابة قد تركوا لنا مثل تلك الكلمات البصيرة التي تنفذ بنورها إلى العقول والقلوب؛ فإنَّ رجالاً من بعدهم أصابوا من مواقع الحقِّ ببصائرهم ما أصابوا، فتركوا لنا من بعدهم كلمات تكاد تكون هي كلمات الصَّحابة رضوان الله عليهم جميعاً، وما ذلك إلاَّ

[1] () انظر مقدمة «سنن الدارمي» و «البدع» لابن وضَّاح و «مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسُّنَّة» للسيوطي.

لأنَّهم نهلوا من المورد الذي نَهَلَ منه الصَّحابة وترسَّموا خُطاهم، وسامتوهم في الأخذ والتَّرك عن نبيِّهم صلى الله عليه وسلم فهذا مالك بن أنس الأصبَحي رضي الله عنه يقول: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة؛ فقد زعم أنَّ محمَّداً خان الرِّسالة؛ لأنَّ الله يقول: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} [سورة المائدة: آية 3].

وهذا الإمام الشَّافعي محمَّد بن إدريس يقول: «من استحسن –أي البدعة– فقد شرَعَ»؛ أي: والتَّشريع من حقِّ الله وحده –وحق البشر أن يلزموه ولا يزيدوا عليه.

وهذا إمام أهل السُّـنَّة الإمام أحمد بن حنبل الشيباني يقول: «أُصول السُّـنَّة عندنا التَّمسُّك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والاقتداء بهم، وترك البدع، وكلُّ بدعةٍ ضلالة».

* أثرُ العصبيَّة المذهبيَّة السيِّء:

فليت أتباع المذاهب الأربعة الذي يزعمون أنَّ مذاهبهم هي الحقُّ، ويزعم أتباعُ كلِّ مذهب بأنَّهم هم وحدهم على الحقِّ، يتفكرون في أقوال أئمتهم، ليعلموا البُعد الشَّاسع بين زعمهم هذا وبين ما قاله أئمَّتهم، فإنَّ المنصف منهم سيَعلمُ علم اليقين أنَّ المَذهبيَّة عصفتْ بالعلم عصفاً شديداً، ولم تُبقِ للحقِّ مكاناً في عقولهم،

وأنَّ الكُتُبَ التي يتعلَّمون منها لا تعدو أن تكون في كثير منها أقوالاً لا تُنبىءُ عن التَّعصُّب المذهبي الذي أفزع النَّاس زمناً طويلاً، وألقى في قلوبهم العداوة والخصومة والقطيعة، فإلى متى سيظلُّ عامَّة أتباع المذاهب يترنَّمون بخطئهم وصوابهم معاً، بل إلى متى سيظلون يترنَّحون تحت ضربات الأهواء الطَّاغية التي تهوي بكلِّ ثقلِها على الدِّين، فتنقصه يوماً بعد يوم؟!

* الله ورسوله المفْزَع الحق:

وقد أوضح لنا القرآن الكريم السَّبيل التي يجب أن نَسلكها عندما تختلط السُّبُل، وتنبِهمُ الطُّرُقُ، فالمفزع حينئذٍ إلى الله ورسوله؛ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى الله وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} [سورة النساء: آية 59].

وبيَّن لنا سبحانه أنَّ حبَّ المؤمنين له لا ينالُه أحدٌ منهم إلاّ باتِّباع رسوله ولزوم طريقته؛ قال تعالى: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} [سورة آل عمران: آية 13].

وقد جعلَ الله القدوة الكاملة للأُمَّة في شخصه صلى الله عليه وسلم، فقال: {لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو الله وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ الله كَثِيراً} [سورة الأحزاب: آية 21].

وإذا تضافرت جهود الأمَّة، وبخاصَّة جهُودَ علمائها؛ في الوقوف على حقائق التَّنزيل فهماً وعملاً، فإنَّها حينئذٍ ستبني لنفسها حِصناً تمتنعُ به من كل ما قد يُتوهَّم أنَّه سينفذ إليها من شرٍّ وجهلٍ واختلافٍ.

* شبهات وتصحيحُها:

وقد يشتبه على بعض النَّاس معنى بعض الأحاديث المرفوعة إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم، أو الآثار الموقوفة على بعض الصَّحابة رضوان الله عليهم، ويحسبون أنَّ من البدعة ما هو حسَنٌ، ومنها ما هو سيِّئٌ، وينثرون بألسنتهم ما فهموا من هذا المعنى بما أوتوا من جهلٍ أو سوءِ نيَّةٍ.

من هذهِ الأحاديث ما ثبت[1] عن جَرير بن عبدالله رضي الله عنه قال :كُنَّا في صدر النَّهار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء قومٌ عراة، مجتابي النمار، متقلِّدي السُّيوف، عامَّتهم –بل كلُّهم– من مُضَر، فَتَمعَّر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى ما بهم من الفاقة، فدخلَ ثمَّ خَرَج، فأمَرَ بلالاً، فأذَّن وأقام، ثمَّ صلَّى، ثمَّ خطبَ، فقال: «تصدَّق رجلٌ من دينارِه، من درهمه،

---

[1] () رواه مسلم.

من ثوبه، من صاع بُرِّه، من صاع تمره»، فجاء رجلٌ من الأنصار بصرَّةٍ كادت كفُّه تعجز عنها، بل قد عجِزتْ، ثمَّ تَتابع النَّاس حتى رأيت كومَيْن من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلَّل كأنَّه مذهبةٌ، فقال صلى الله عليه وسلم: «من سنَّ في الإسلام سنَّةً حسنةً؛ فله أجرها وأجرُ من عملَ بها من بَعدِه من غير أن ينقُص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنَّةً سيئة؛ كان عليها وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

هذا الحديث، يتَّكىءُ عليه اتِّكاءً شديداً من يقول بِحُسنِ بعض البدع، لكنَّه أُتي من سوء فهمه للحديث، وقصور علمه، وإلاَّ فما الَّذي يجعله يظنُّ هذا ويعتقده لو أنَّه بَصُرَ به على علمٍ وشيءٍ من التَّأمُّل الدَّقيق؟!!

فعندما أبصرَ الرَّسول صلى الله عليه وسلم بهؤلاء النَّفر من مُضَرٍ، ورأى أماراتِ الفقر ظاهرة عليهم؛ دخلَ بيته وكأنَّه يريد أن يلتمس لهم شياً من طعام، ولكن هل كان يملك الرَّسول صلى الله عليه وسلم شيئاً من طعام؟ وعاد صِفر اليدين، فأمر بلالاً أن يؤذِّن، فصلَّى بالنَّاس، ثمَّ خطبهم، وحثَّهم على التَّصدُّق لهؤلاء، فقام رجل من الأنصار مُسرعاً، فأتى بصرَّة كبيرة، فوضعها بين يديه صلى الله عليه وسلم، فلمَّا رأى الصَّحابة ما فعلَ هذا الصَّحابي؛ قاموا متتابعين، وكلٌّ منهم يأتي بشيءٍ، حتى

اجتمع كومان من طعام وثياب، ففرَّقهما بين أُولئك النَّفر من مُضَرَ، وقال: «من سنَّ في الإسلام...» إلخ.

والدَّليل على أنَّ هذا الحديث لا يُؤيِّد مقالَة القائلين بحُسن بعض البدع من وجوه:

أوَّلاً: أنَّ سبب مقالة النَّبي صلى الله عليه وسلم هو فعلُ الأنصاري، فهو صلى الله عليه وسلم إنَّما أراد بذلك الثَّناء عليه، ثمَّ لتنبيه الآخرين إلى أمر غَفَلوا عنه، ولا ريب أنَّ سبب القول يُنبىءُ عن المعنى المراد، ويعين على فهمه والإحاطة به.

ثانياً: أنَّه قال: «تصدَّق رجلٌ من دينارِه، من درهمه، من ثوبه، من صاع برِّه، من صاع تمره»؛ فتتابع النَّاس بالتَّصدُّق بعدما رأوا الرَّجل الأنصاري يتصدَّق؛ فهل فَعَل هؤلاء الصَّحابة شيئاً مُحْدثاً لم يأمر به الله ورسولُه من قبل؟!

وعلى فرض أنَّهم لم يعرفوا الصَّدقة من قبل، فهل استجابتهم لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقتهم هذا تُعدُّ أمراً مُحدثاً؟ سواء أكان هذا أم ذلك؛ فهم لم يَعدُوا أنَّهم فعلوا واستجابوا لأمر مشروع أمرهم به الله ورسوله.

ثالثاً: أنَّه صلى الله عليه وسلم قال: «من سنَّ في الإسلام...»، وهل ما فعلَه الصَّحابة من التَّصدُّق

والمُسارعة إليه إلاَّ شيئاً من صلب الإسلام وأحكامه؟ فإنَّ كلمة (في) تفيد الظَّرفيَّة، كما هو معلوم ظاهر، فإن كان الشيء المفعول ممَّا شرعه الإسلام، وحثَّ عليه؛ فإنَّ كلمة (في) تتناوله، وإن كان ليس ممَّا شرَعه الإسلام، فإنَّ كلمة (في)لا تتناوله، ومن هنا نعلم بأنَّ كلمة (في) تدلُّ على مشروعيَّة الشيء، أو على عدم مشروعيَّته.

هذا إلى أنَّه من المعلوم بداهةً أنَّ الإسلام المراد هنا، هو الإسلام الذي أكمله الله سبحانه، وأتمَّ به النِّعمة على العباد، وما أكمله الله وأتمَّه ليس يعوزه شيءٌ، ومن أتى بشيءٍ لإضافته إليه ظنَّاً منه أنَّ فيه نقصاً، فأيُّ ظنٍّ أسوأُ من هذا الظَّن عياذاً بالله تعالى؟!

لذا؛ فإنَّ الله سبحانه تجاوز عن خطأ المجتهد، الذي يتحرَّى باجتهاده الصَّواب، بل أثابه عليه أجراً واحداً، وليس يخفى أنَّ الخطأ الذي يُثاب عليه هو الخطأ الذي ظنَّه المجتهد صواباً، أمَّا الذي يأتي بشيءٍ لإضافته إلى الدِّين ولو كان ممَّا يحسبه حسناً، فهو متعمِّد ما صنع، فليس مدركاً بصنيعه هذا ثواباً، بل هو أحاق بنفسه إثماً ولا ريب، لأنَّه قد زاد في دين الله ما ليس منه.

رابعاً: هل كان الرَّسول صلى الله عليه وسلم سيقول الكلمة التي قالها لو لم يفعل هذا الأنصاريُّ ما فعل من إحضار الصرَّة الذي جعل الصَّحابة يقتدون به؟

أظنُّ أنَّ الجواب: لا، إذاً، فَظَهرَ جليَّاً أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم إنَّما قال هذه الكلمة ثناءً على هذا الصَّحابي، وحثَّاً لغيره على الاقتداء به من بَعد، فكأنَّه أراد صلى الله عليه وسلم من كلمته هذه تنبيه الصَّحابة إلى أنَّ ما فعله أخوهم أوَّلاً كان تذكيراً لهم بأمرٍ كانوا غافلين عنه، فيكون معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «من سنَّ في الإسلام سنَّةً حسنةً» أي: مَن أحيا سنَّةً مشروعةً من سنن الإسلام كان النَّاس غافلين عنها، ونبَّههم إلى فعلها؛ فله أجرُها وأجر من عمل بها.

خامساً: «من سنَّ في الإسلام سنَّةً سيِّئة...» هل حدَّد لنا الرَّسول صلى الله عليه وسلم السنَّة السيِّئة التي يحمل الإنسان وزرها ووزر من عمل بها؟ أم أنَّ ذلك متروك للأُمَّة من بَعده، تحكُمُ برأيها على البدعة، فما تراه من الأشياء حسناً؛ فهو من باب السُّـنَّةِ الحسنة، وما تراه سيِّئاً؛ فهو من باب السُّـنَّة السيِّئة؟!

أحسب الرَّسول صلى الله عليه وسلم لم يُرِد ذلك البتَّة، فقد أتمَّ الله دينه الذي شرَعه للنَّاس قبل موته، وأمره أن يبلِّغهم إيَّاه بقوله تعالى : {يَـأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ} [سورة المائدة: آية 67]، فكلُّ شيءٍ يُفعَلُ بعد موته صلى الله عليه وسلم زيادةً عمَّا شرعه الله؛ فهو بدعة زائدة، وكلُّ شيءٍ يُفعلَ بعد موته ممَّا شرَعه؛ فهو افتئاتٌ على

دينه وظُلمٌ.

وقد مرَّ معنا أقوال بعض السَّلف الصَّالح رضوان الله عليهم في ذمِّ البدعة، وبيان المراد منها؛ ممَّا يغنينا عن إعادتها وتكرارها.

وممَّا تقدَّم كلِّه يظهر لنا أنَّ من يتَّكىءُ على هذا الحديث في تسويغ البدعة الحسنة قائلٌ قولاً مردوداً عليه، فهو بقوله هذا مُحْدِثٌ في الإسلام حدثاً لا ينجو من إثمه إن ظلَّ عليه، ويصدُق فيه قوله صلى الله عليه وسلم: «من أحدثَ في أمرنا ما ليس منه فهو رَدٌّ»[1].

أمَّا مقالة عُمر رضي الله عنه التي يتغنَّى بها أُولئك القائلون بحسن البدعة وهي قوله: «نعمت البدعةُ هي»[2]؛ فلا أحسب إلاَّ أنَّ من يتّكىءُ عليها يتَّكىءُ على عصا ليِّنة، كلَّما اتَّكأَ عليها صاحبُها؛ سقط أرضاً!

ولبيان ذلك أقول:

عندما شرع النَّبي صلى الله عليه وسلم لأُمَّته صلاة القيام جماعةً في رمضان؛ قام يصلِّيها في المسجد، فوقف يُصلِّي خلفه عدد من أصحابه أوَّل ليلة، وزاد العدد في اللَّيلةِ الثَّانية، وغصَّ المسجد في اللَّيلة الثَّالثة، فخشي الرَّسول صلى الله عليه وسلم إن هو خرج إليهم للصَّلاة بهم أن تُكتبَ عليهم، فامتنع، فجعل بعض الصَّحابة يرمون

[1] () رواه البخاري ومسلم عن عائشة.

[2] () رواها البخاري.

باب حُجرته صلى الله عليه وسلم بالحصى يظنُّون أنَّه قد نسي، فخرج إليهم صلى الله عليه وسلم، وأعلمهم أنَّه لم يخرج إليهم خشية أن تُكتبَ عليهم، فجعل النَّاس يُصلُّونها فرادى، ومضى الأمر على ذلك طول حياة أبي بكر رضي الله عنه، وجزءاً من خلافة عُمر، إلى أن خرج عُمر على النَّاس يوماً، فرأى بعض الصَّحابة يصلُّون أوزاعاً في المسجد خلف بعض الحَفَظَةِ من الصَّحابة، فقال: لو أنَّا جمعناهمُ على أُبيّ، فلمَّا حَصَلَ ذلك واجتمَعَ الصَّحابة؛ قال عُمر رضيَ الله عنه: «نعمت البدعة هي».

أفيَظُنُّ ظانٌّ أنَّ عُمر رضي الله عنه لم يكن يعلم ما كان عليه أمر هذه الصَّلاة وهو الذي عاش في أكناف النُّبوَّة؛ يستَقي من وِرْدها الصَّافي، ويتزوَّد منه لآخرته؟ !لا أحسب ذلك.

إذاً؛ فعمر لم يكن يخشى على النَّاس أن يلتبس أمرُ صلاة القيام جماعة في رمضان عليهم، فيعتقدوهُ واجباً؛ إن هو جَمَعَ النَّاس على إمامٍ واحدٍ؛ لأنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم شرع الأمرين لأُمَّته في قيام رمضان، أي: شرع لهم أن يصلُّوها جماعة، وشرع لهم أن يصلُّوها فرادى، فلمَّا رأى عُمر تفرُّق النَّاس في المسجد الواحد؛ جمعهم على أُبيّ توحيداً للجماعات –وقد انتفت الخشية من ظنٍّ فرضيَّتها– فاستجاب إليه الصَّحابة، ورضوا لأنفسهم ما رضي عُمر لهم، وقد علموا قولَه صلى الله

عليه وسلم: «عليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين المهديِّين من بعدي، عَضُّوا عليها بالنَّواجذ»[1].

ولم يكن لأحد من أُولئك الخلفاء أن يخالف عن شيءٍ من سُـنَّةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبخاصَّة عمر رضوان الله عليه، الذي كان قوله في كثير من المواطن يوافق الوحي، وحينئذٍ يتحتَّم علينا أن نتأوَّل البدعة في كلمة عُمر، فهي قطعاً إمَّا أن تعني البدعة لغة، وإمَّا أن تكون من باب الإنكار على من سمَّاها بدعة، فكأنَّه قال: نعمت البدعة هي لو كانت بدعة، لكنَّها ليست بدعة، فكيف يصحُّ تسميتها بالبدعة؟! وهذا المعنى الثَّاني هو الأقرب عندي من المعنى الأوَّل، والله أعلم، إذ هو المناسب للحال، فإنَّ بعض الصَّحابة رضوان الله عليهم أجمعين ربَّما لم يعلم ما كان، وبعضهم ظنَّ أنَّ انقطاع النَّبي صلى الله عليه وسلم عن صلاتها في جماعة هو تشريع بصلاتها في غير جماعة، فكان منهم الإنكار على جمع النَّاس عليها بتسميتها بالاسم الذي تليق به في ظنِّهم، وهو البدعة، لكن فقه عُمر رضي الله عنه صَوَّب ظنَّهم، وردَّهم إلى الحقِّ الذي جَهِلوه، فعلموا أنَّ الحقَّ مع عُمر رضي الله عنهم أجمعين.

أمَّا مقالة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وهي:

---

[1] () تقدم تخريجه.

«ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسنٌ»[2] التي ينسبونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهي أيضاً عند أدنى نظر إليها تسقط أمامها حُجَّةُ المتَّكيء عليها، ذلك أنَّ عبدالله بن مسعود كان أكثر الصَّحابة تمسُّكاً بالهدي النَّبوي، وقد صحَّت عنه أقوال كثيرة، يبعد معها أن يكون من الذين يستحسنون بدعة؛ مهما كانت هذه البدعة، لذا فإنَّ على من يتَّخذ من هذه الكلمة باباً يلجُ منه إلى تحسين البدعة، أن ينظر قبلاً في سيرة عبدالله بن مسعود؛ ليرى كلَّ كلمة قالها في تقبيح البدعة، والتَّشنيع على قائلها أو فاعلها رِتاجاً قويَّاً ثقيلاً، يُحكم إغلاق هذا الباب، فلا يقوى مريد الولوج منه على كسر أيِّ واحدٍ منها، فضلاً عن أن يقدر على كسرها مجتمعة.

إذاً؛ فتأويلُ هذه الكلمة: «ما رآه المسلمون حسناً» ممَّا يوافق الشَّرع، ولا يندُّ عنه بزيادة أو نقص، ويكون قائماً على دليلٍ من كتاب الله أو سنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم، فهو حسن، أو قُل: بأنَّ دليل هذه الكلمة من أُصول الإجماع، والإجماع لا يكون إلَّا باستناد إلى دليل من الكتاب أو السُّـنَّة، فبطل بذلك قول من يهجم على السُّـنَة للابتداع بهذه الكلمة الرَّائعة العظيمة التي تأوّلها من تأوَّلها على غير وجه حق.

---

[2] () أخرجه أحمد، والطيالسي، بسندٍ حسن موقوفاً.

* البدع كلُّها ضلالات:

بقي أن نعلم أنَّ البِدَعَ كلَّها ضلالات، والضَّلالات مع أصحابها في النَّار، وشرُّ البدع ما يُرَوِّجُ لها المبتدعون أو الجاهلون بشتَّى أنواع التَّرويج، ويتأوَّلون لها الأحاديث النَّبويَّة والآيات القرآنيَّة تأويلاً ينأى بهم كلَّ النَّأي عن الحقِّ والذَّوق معاً، ولا يخلو من زمانٍ أُولئك، رغم ما يهيِّىءُ الله سبحانه من رجال يعرفون الحق، والحق يعرفهم، وينأون بما يعرفون عن الباطل، فينأى الباطل عنهم، والذي يستقرىءُ تاريخ الإسلام الطَّويل؛ يعرف هذا جيِّداً.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى تقسيم البدع بحسب الأحكام الشَّرعيَّة، فجعلوا منها ما هو حرام، ومنها ما هو مكروه، ومنها ما هو مكروه كراهة تنزيه، ويبدو أنَّهم قسَّموها هذا التَّقسيم؛ لتفاوت البدع نفسها، فإنَّ الإثم في البدعة تكون في العقيدة أعظم من إثم بدعةٍ تكون في الأحكام؛ غير أنَّ هذا التَّقسيم عندي لا يحسُن؛ لأمرين:

الأوَّل: أنَّ قوله صلى الله عليه وسلم: «كلُّ محدثةٍ بدعة، وكلُّ بدعةٍ ضلالة»؛ لم يفرِّق في الحكم بين بدعة وبين بدعة أُخرى، فالنَّكرة إذا أُضيفتْ، أفادت العُموم، والعُموم لا يخص إلاَّ بالاستثناء، وأين الاستثناء هنا؟!

الثَّاني: أنَّ الإثم قَدْرٌ مشترك بين البدع كلها، وليس يحسن بنا أن نحكم على بدعة بأنَّها أقلُّ من غيرها، ولم

يبيِّن لنا ذلك الرَّسول صلى الله عليه وسلم، فيكون التَّفريقُ في الحكم أو الوصف بين بدعة وبين أُخرى تفريقاً قائماً على الرَّأي المحض، وفي هذا تخرُّص لا يحسن بمسلم أن يفعله، وهو بدعة في ذاته.

إذاً؛ فكلُّ بدعةٍ –أيُّ بدعة– ضلالة، تورد صاحبها ومبتدعها، أو الدَّاعي إليها، أو من يرضَى بها، أو من يعلمها ثمَّ لا يحذِّر منها؛ في النَّار، ثمَّ لا يجد عنها حِوَلاً إلاَّ أن يتداركه الله برحمته.

فهل عسى أُولئك أن يقلعوا عن بدعهم، وأن يتوبوا عمَّا أوقعوا أنفسهم فيه من حوبٍ وإفكٍ، وأن يتوبوا إلى ربِّهم برميهم السَّلفيِّين بغير ما اقترفوا؟!

وأخطر بدعة أصابت أمَّة الإسلام هي البدعة التي أضلَّت الكثيرين عن سماحة عقيدة التَّوحيد، واجتالتهم عن سوائها، فاحتالوا عن النُّصوص القُرآنيَّة والنَّبويَّة التي تحدَّثت عن العقيدة احتيالاً لا يقبله وجدانٌ نظيف، ولا ذوق سليم، فضلاً عن أن يتقبَّله عقل مؤمن، وهي بدعة خطرة تتهدَّد الأُمَّة كلها إن هي بقيت في غفلتها عن هذا الخطر لا قدَّر الله، وقد ذاقت الأُمَّة من ويلاتها في الماضي ما يكفي لأن ينبِّهها إلى خطر هذه البدعة، ويعيد إليها رشدها، فتلتقي على طريق التَّوحيد الحق الذي ضلَّت عنه ردحاً طويلاً من الزَّمن، فتَسْعد هي، وتُسْعِد غيرها، وذلك ما سنتحدَّث عنه في المبحث الآتي، إن شاء

الله تعالى.

كَيْفَ نَفْهَمُ العَقِيدَة؟

ماذا يفهم العربي -الذي يقرأ بالحرف العربي، وينطق باللسان العربي، ويكتب بالكلمة العربيّة- من قوله تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ} [سورة الزمر: آية 30]؟

دعني أقلْ: إنَّه يفهم منها: أنَّ الله سبحانه، كتب الموت على الأحياء من البشر جميعاً، ومنهم -أفضلهم، وأكرمهم على الله وأقربهم منزلةً منه- رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنَّ الخلود في هذه الدُّنيا ليس لأحدٍ منهم البتَّة.

ودعني أقل: إنَّ العربيَ الذي وصفنا آنفاً، لا يمكن أن يفهم من هذه الآية غير الذي فهمنا، وإن كان يفهم غيره، فلا أدري ما صلته بالعربيَّة والعرب؟

وقد ذكرَ القرآن الموت بألفاظٍ أُخرى، كلفظ الهلاك، كما في قوله سبحانه: {حَتَّى إِذَا هَلَكَ[1] قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ الله مِن بَعْدِهِ رَسُولاً} [سورة غافر: آية 34]، وكما في قوله سبحانه: {وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ} [سورة الجاثية: آية 24]، فالحياة الباقية الأزليَّة الأبديَّة لا تكون إلا لله وحده سبحانه.

---

[1] () أي: يوسف عليه السلام.

ونحن إذ نقرأ قوله سبحانه: {الله لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [سورة البقرة: آية 255]لا يخطر ببالنا، بالنِّسبة لله سبحانه ضدَّ المعنى المتبادر من هذه الآية، والمعنى المتبادر هو: أنَّ الله سبحانه اختصَّ نفسه وحده بالحياة الدَّائمة، التي لا يعتريها وهنٌ، ولا نقصٌ، ولا زوالٌ، من التي تعتري حياة المخلوقين.

أمَّا حين نقرأ قوله سبحانه: {وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ} [سورة الأنفال: آية 42] فإنه يتبادر إلى الذِّهن فوراً، أنَّ حياة الإنسان، ليست دائمة خالدة، بل هي ذاهبة، واهنة، ناقصة، يؤكِّده قوله سبحانه : {لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ} [سورة الأنفال: آية 42].

فكيف نفهم من قوله سبحانه: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ} [سورة الزمر: آية 30] أنَّ الموت هو من صفات المخلوقين، وليس من صفات الخالق، ونقرأ قوله تعالى: {الله لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [سورة البقرة: آية 255]، ونفهم أنَّ الحياة الباقية هي من صفات الخالق، وإن كان البشر يوصفون بالحياة، لكنَّها ليست كحياة الخالق سبحانه؟

الله سبحانه وصف نفسه بالحياة، ووصف البشر بالحياة، لكنَّه ماز حياة البشر من حياته، كيلا يُخالط الأذهان لَبْسٌ بالألفاظ المشتركة المعنى، والتي لا تَميز بظاهرها بين معنيين مرادين للفظٍ من ألفاظها، إلاَّ إن

ورد عليه شيءٌ يرفع اللبس ويزيل الإبهام، وإن كان ما كان ينبغي أن يكون لبسٌ ولا إبهامٌ، لكن التَّشريع الإلهي لا يَقِفُ بالعقل الإنساني بألفاظ لغة ما، أو بمعانيها، عند زمان معيَّن، ولا عند أصل إنساني واحد.

ولما كان الإسلام هو خير الأديان، وهو أشملها للزَّمان والمكان والإنسان، كان لا بدَّ وأن يكون للُّغة التي نزل بها دلالاتٌ واضحةٌ ثابتةٌ، وهي أشرف اللُّغات، وأعلاها قدراً ومنزلةً، وأقواها بالخصائص التي مازها الله بها سبحانه.

لذا؛ فإنَّ هذه اللغة، كان لها الفضل من الله على المسلمين في كلِّ القرون والأقطار، أن أبقت عليهم سلامة الفطرة في عقيدتهم وشريعة ربِّهم.

وقَد زُحزِحَ كثير من المسلمين عن سلامة فطرتهم، وتأوَّلوا كلام الله تأويلاً لا يستقيم إلاَّ في عين الفلسفة الماكرة، والأمر أيسر بكثير جدَّاً ممَّا يظنُّون، فكيف نميز بين حياة الله سبحانه، وبين حياة البشر، أليس بمثل قوله سبحانه : {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [سورة الشورى: آية 11]، وهل يختلف الفهم لكلام الله، ويده، واستوائه، عن الفهم لحياته سبحانه؟

إنَّ اختلاف الفهم، الذي يجعل لفظةً في اللغة العربيَّة -بإجماع كلِّ من يعرف العربيَّة- لها مدلولٌ واحدٌ لا يختلف باختلاف الذَّات التي تنسب إليها هذه اللفظة، أو

تصدر منها، في حين يجعل لِلَفْظَةٍ أخرى في اللغة العربيَّة، معنيين مختلفين باختلاف الذَّات التي تنسب إليها أو تصدر عنها، إن دلَّ فإنَّما يدلُّ إمَّا: على عجزٍ في الفهم، وإمَّا: على جهلٍ لعُجمةٍ ونحوها، وإمَّا على تحريفٍ مقصودٍ في معاني ألفاظها، لإدخالِ المجازاتِ عليها المشوبةَ بالمعاني والأفكار الفلسفيَّة الدَّخيلة على الأُمَّة، وما فُتِحَ بابٌ من الشرِّ على القرآن الكريم أوسعَ من باب القول بالمجاز فيه، وهو من المجاز بريءٌ، بل إنَّ لغةَ العَربِ كلَّها بريئةٌ هي مِنَ المجاز.

وكثير من النَّاس اليوم، بل سوادُهُم الأعظم يتورَّعون عن التَّحدُّث في أمر العقيدة إلَّا حديثاً عامَّاً لا يضع عن جاهل جهلاً، ولا يزيد عالماً علماً، ولو كان تَورُّعهم هذا كائناً منهم لوضوح تصورُّهم في العقيدة لمُدحوا عليه، لأنَّه هو الأصل، وهو سبيل السَّلف من الصَّحابة والتَّابعين رضوان الله عليهم أجمعين، فيكونون بذلك قد نهجوا نهج أسلافهم، وحذوا حذوهم، واتَّبعوا سبيلهم، ففازوا بالأخذ بهديهم، كما أرشدهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «عليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء المهديِّين الرَّاشدين من بعدي، عَضُّوا عليها بالنَّواجذ»[1].

غير أنَّ تورُّعهم هذا كائنٌ إمَّا خشيةً منهم على عقيدة ورثوها أن تُبَدِّل وتُغَيِّر فيهم، وإمَّا –زعموا– حفاظاً على

---

[1] () سبق تخريجه.

وحدة كلمة الأُمَّة أن تفرَّق، أو تزداد فرقة، وإمَّا خوفاً من الدَّهماء والعامَّة، وهذا لعمر الحق لا يدلُّ على ورعٍ صحيح، ولا حتى على علمٍ شحيحن والورع منشؤه العلم، والعلم ينتهي بالعالم والمتعلِّم معاً إلى الورع.

وكان البعض الآخر يُمسك عن الحديث في صفات الله تنزيهاً له كما يزعمون، ينزِّهون الله بأكثر ممَّا نزَّه به نفسه!!

ومن هنا كان التَّحدُّث في أمر العقيدة فيه بعض الصُّعوبة والحرج من كثيرٍ ممَّن تأثَّر بهذا الاتِّجاه الخاطيء وتأثَّم منه.

والذي أُريد التَّحدث عنه هو توحيد الصِّفات، فأقول: إنَّ توحيد الصَّفات هو الذي دارت فيه رحى الحرب الطَّويلة الأمد بين الحقِّ وبين الباطل، وضلَّت فيها طوائف كثيرة من المسلمين، ودقَّت في ساحتها أعناق الأُلوف المؤلَّفة من أهل العلم، إذ زاغت منهم العقول والقلوب، وانحرفت بهم الأهواء المضلَّة عن سواء الصِّراط.

فأقول أوَّلاً: مضت القرون الفاضلة الأولى، والقرآن والحديث هما مصدر التَّوحيد بأنواعه الثَّلاثة، كما كانا مصدر التَّشريع في العبادات وغيرها؛ توحيد الألوهيَّة، وتوحيد الرُّبوبيَّة، وتوحيد الصِّفات، ولم يُعرف أنَّ أحداً من الصَّحابة رضوان الله عليهم كان يسأل الرَّسول صلى الله عليه وسلم عن مسألة من مسائل التَّوحيد أبداً؛ لوضوحهِ،

وظهور أمرهِ.

فكانوا يقرؤون قوله تعالى : {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لله قَانِتِينَ} [سورة البقرة: آية 238]، ويقرؤُون قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} [سورة هود: آية 107]، ويقرؤون قوله تعالى : {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} [سورة فصلت: آية 46]، ويقرؤون قوله تعالى: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله وَالله خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [سورة الأنفال: آية 30]، ويقرؤون قوله تعالى : {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} [سورة المائدة: آية 64]، ويقرؤون قوله تعالى : {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} [سورة القصص: آية 88]، وغير ذلك من الآيات، فلم يُحفظ عنهم أنَّهم سألوا الرَّسول سؤالاً واحداً عن وجه الله ولا عن يديه، ولا عن مَكْرِه، ولا عن إرادته وفعله أبداً، فكلُّ هذه الأشياء كانت معلومة عندهم لا تحتاج إلى تأويل من الرَّسول صلى الله عليه وسلم لهم.

بل كانت أسئلتهم كلُّها تدور حول مسائل الأحكام المتعلِّقة بالعبادات، والمعاملات، والأخلاق، وهي ما تسمَّى بالفروع، وهذا واضحٌ جدَّاً من آيات القرآن وسُورِه التي خلَّد فيها القرآن السُّؤالات التي كان الصَّحابة يسألونها الرَّسول حتى إنَّه نهاهم عنها بقوله: {لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ} [سورة المائدة: آية 101].

لِمَ كان هذا من الصَّحابة؟ إنَّه ولا شك لأنَّ فهمهم آيات العقيدة لم تكن عندهم معضلة تشكِّل عقبة تحول بينهم وبين الإحاطة بها، فاليد معناها يد، والعين عين، والوجه وجه، والإرادة هي الإرادة، إلى غير ذلك من الآيات التي اشتملت على ذكر الصِّفات الإلهيَّة، كما يليقُ بجلالهِ وعظمتهِ سبحانهُ.

ثانياً: أنَّه حينما نشأت الفرق المنحرفة الضَّالَّة بين المسلمين، وأخذ غُلاتُها يتأوَّلون آيات الصِّفات تأويلاً بعيداً عن الحقِّ والصَّواب، ويعطِّلونها تعطيلاً يُفضي إلى تجريد الله من كماله الذي أحاط به نفسه، ونزّهها عن النّقص الذي ألحقه به أولئك الغلاة، قامت طائفة من علماء الحقِّ يردّون الناس إلى ما كان عليه الصَّدر الأول تحقيقاً لموعود الله في هذه الأمة أنه سينجي منها هذه الطائفة التي وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «كلُّها في النار إلا واحدة»، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[1].

هذه الطائفة بعلمائها وأئمتها الأجلّاء قالت بلسان واحد ما نطق به الإمام أحمد رضي الله عنه: «لا يوصف الله إلَّا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، لا يُتجاوز القرآنُ والحديثُ»، فأحيت بذلك تفكيراً مضاداً للتفكير الذي مُنيت به الطوائف الضالّة.

---

[1] () سبق تخريجه.

ومذهب هذه الطائفة يتلخَّص في ثلاثة أصول:

الأصل الأول:

إثبات ما أثبته لنفسه وتنزيهه عما نزّه عنه نفسه، سواءٌ أكان بصريح الكتاب أم بصحيح سنَّة نبيه صلى الله عليه وسلم، لا يزيد عليه ولا ينقص منه، لأنَّ في الزيادة عليه كذباً على الله وعلى رسوله، وفي النّقص اتهاماً لله ولرسوله، وكلا الأمرين كفر بواح عياذاً بالله، ومن هنا كانت السَّلامة كلُّ السلامة في إثبات هذا الأصل على نحو ما أقرّته هذه الطائفة العظيمة من علماء هذه الأمة، والله ورسوله أعلم بحق الله في ذاته وصفاته وأسمائه، قال تعالى: {أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ الله} [سورة البقرة: آية 11].

الأصل الثاني:

تنزيه الله سبحانه عن مشابهته بصفاته صفات خلقه، فهو إن وصف نفسه بالسّمع والبصر والإرادة والحياة والقدرة والعلم وغير ذلك، فلا يعني أنه بصفاته هذه يشبه صفات مخلوقيه، فصفات الإنسان تليق بضعفه ونقصه، وصفات الخالق تليق بكماله وعظمته، فبذهاب الإنسان وموته تذهب صفاته وتموت، أمَّا صفات الخالق فهي متعلّقة بذات الله سبحانه، قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [سورة الشورى: آية 11]، وقال سبحانه: {فَلاَ تَضْرِبُواْ لله الأَمْثَالَ} [سورة النحل: آية 74]، وذات الله لا تفنى ولا تزول.

الأصل الثالث:

أن يقطع الإنسان الطمع عن إدراك حقيقة صفات الله سبحانه، فكما أن ذاته العظيمة مجهولة للناس ولا تُعرف على حقيقتها، فكذلك صفاته سبحانه، اللائقة بذاته، مجهولةٌ للناس لا تُعرف على حقيقتها، وهذا الأصل يوفّر على الإنسان كثيراً من الجهد العقلي، ويحول بينه وبين الضَّلال الذي وقع فيه كثيرٌ من المعطِّلة والمشبِّهة في آنٍ معاً، قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً} [سورة طه: آية 110].

وإذا كان الله سبحانه قد حجب نفسه عن خلقه، واختصّ علمه بذاته بنفسه؛ لحكمةٍ يعلمها ويريدها في الدنيا، فإنَّ هذه الحكمة اقتضت أن يعرف المؤمنون ربهم بذاته يوم القيامة حيث يشاهدونه عياناً، فتغرق كلّ لذة أصابوها في بحر لذة مشاهدة الحقّ سبحانه، يشاهدونه كما يُشاهد البدرُ ليلة تمامه، مصداقُ ذلك في كتاب الله وفي سنَّة نبيه صلى الله عليه وسلم.

أما ما جاء في الكتاب فقوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [سورة القيامة: آية 23]، هذه وجوه المؤمنين مشرقة مسرورة تنظر إلى ربِّها في فرح وسرور، أما ما في السُّنَّة فقوله صلى الله عليه وسلم: «إنّكم سترون ربكم عياناً»[1].

---

[1] () رواه البخاري.

وعن أبي سعيد وأبي هريرة أنّ أُناساً قالوا: يا رسول اللهِ هل نرى ربّنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارُّون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما حجاب؟» قالوا: لا، قال: «إنَّكم ترون ربكم كذلك»[2].

ولم يُحدِّد لنا الرَّسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث صفاتِ الله سبحانه، ولا الحالَ التي يكون عليها الرّب سبحانه حين يراه المؤمنون يوم القيامة، ولكنّه قال إن الرؤية تتحقّق لهم، وإنَّ الله سبحانه ينكشف لعباده المؤمنين فيرونه بأبصارهم كظهور الشمس والقمر ورؤيتهما بالأبصار المجرّدة، والمقصود هنا تشبيه الرؤية، أي: من حيث وضوحها، وليس تشبيه المرئي في الآخرة –وهو الله سبحانه– بالمرئي في الدُّنيا –وهو الشمس والقمر–، وبهذا ينتفي ما ألصقه بعض المتخرّصة بالسَّلف، من أنّ رؤية الله على هذا النحو، تستلزم الحيّز والمكان! وما علموا أنهم بهذا اللازم نفوا خبراً صحيحاً –بل أخباراً– من أخبار النبي صلى الله عليه وسلم، أوحى به إليه ربُّه سبحانه.

وإذا كان هذا ما عليه الأمر بالنسبة لله سبحانه في الآخرة، فأولى أن يكون ذلك في الدُّنيا، فالله سبحانه وصف نفسه بالاستواء على العرش في سبعة مواضع في القرآن كقوله: {الرَّحْمَـنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [سورة

---

[2] () متفق عليه.

طه: آية 5]، فالاستواء على العرش صفةٌ من صفاته سبحانه، لكن الله سبحانه استأثر نفسه بعلم حقيقة استوائه هذا، وإن كان معنى الاستواء معروفاً في اللغة، فمعنى استوى في اللغة: علا وارتفع عليه، يقال: استوت السفينة على الماء، أي: علت وارتفعت، لكن هذا المعنى لا نستطيع أن نطلقه على الله إطلاقه على الشيء المخلوق، فنحن وإن عرفنا معنى استوى في قوله سبحانه : ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [سورة طه: آية 5]، لكننا عاجزون على أن ندرك كيفية استواء الله سبحانه على العرش.

وقد علّمنا الإمام مالك –رحمه الله– كيف نفهم هذه الآية على وجه الصَّواب الذي لا يوقعنا في المحظور، الذي من أجله عطّلت الجهمية صفات الله سبحانه، وذلك فيما حكاه لنا ابن وهب عنه، قال: كنت عند مالك فدخل رجل فقال: يا أبا عبدالله {الرَّحْمَـنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، كيف استوى؟ فأطرق مالك، وأخذته الرُّحصاء –العرق الكثير– ثمّ رفع رأسه، فقال: الرَّحمن على العرش استوى كما وصف نفسه، ولا يقال: كيف، وكيف عنه مرفوع، وأنت صاحب بدعة أخرجوه.

وفي رواية أخرى أنَّه قال: الاستواء منه غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإنِّي أخاف أن تكون ضالاً، وأُمر به فأُخرج، وهذا

هو قول أهل السُّـنَّة قاطبة.

فالمطلوب إذاً في هذه الآية أن نسلّم بها تسليماً، وأن نعلم أن المعنى الذي يليق بالمخلوق، وأنّنا إن أدركنا بعلمنا كيفية السماء السابعة، وأنَّ الله سبحانه فوق عرشه بذاته، فإننا يقيناً لن نستطيع أن ندرك كيفيَّة استوائه سبحانه، وقد دلَّ لهذا القرآن والسُّـنَّة:

أما القرآن: فقوله تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [سورة فاطر: آية 10]، وقوله أيضاً: {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [سورة النحل: آية 50]، وقوله أيضاً: {أَأَمِنتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُور} [سورة الملك: آية 16]، و «في» هنا في هذه الآية بمعنى على، مثل قوله تعالى: {وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [سورة طه: آية 71].

وأما السُّـنَّة: فعن معاوية بن الحكم السُّلمي، أنه كانت له جارية ترعى غنيمات، وأنَّ ذئباً ذهب بشاة منها، فلطمها، فندم، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: ألا أُعتقها؟ فقال: «ادعُها إليّ»، فقال لها: «أين الله؟»، قالت: الله في السماء، قال: «فمن أنا؟»، قالت: أنت رسول الله، قال: «اعتقها فإنّها مؤمنة»[1]، وقوله صلى الله عليه وسلم أيضاً: «ارحموا من في الأرض يرحمكم

[1] () رواه مسلم.

من في السماء»[2].

وبمثل هذه الآيات والأحاديث الصحيحة تزول ضلالة أخرى من ضلالات أهل الأهواء، وهي أن الله سبحانه في كلِّ مكان، وقد يركنون في هذه الضلالَّة إلى بعض الآيات، كقوله تعالى : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ...﴾ [سورة المجادلة: آية 7]، وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: آية 4]، فإذا سألت أحدهم وقلت له: أين الله؟ لم يقلْ ما قالته الجارية التي وصفها الرَّسول بأنها مؤمنة، وأجابت به، بل يقول لك على الفور: الله في كلِّ مكان!!

نعم؛ إنَّ الله في كل مكان كما قال عن نفسه، وأثبت ذلك في كتابه؛ لكنَّه ليس معنا معيّة ذات، بل معيّة علم، وذلك لأنَّ النصوص من الكتاب والسُّـنَّة التي سقناها قبلُ تدلُّ على عُلُوِّه وفوقيته على عرشه، وتنزيهه سبحانه عن مشابهة خلقه باستوائه، فبذلك يتبيّن لنا أنَّ معنى قوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: آية 4]، ومعنى قوله : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ...﴾ [سورة المجادلة: آية 7]، هو أنَّ الله سبحانه معهم بعلمه، فهو عالمٌ محيطٌ بكلِّ شيء خفِيَ أو ظَهَر، دقّ أو عظُمَ، كما قال سبحانه : ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ

---

[2] () رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي عن ابن عمرو، وهو حديث صحيح.

وَأَخْفَى} [سورة طه: آية 7]، وكما قال : {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [سورة الأنعام: آية 59]، إلى غير من الآيات الدَّالة على إحاطة علم الله سبحانه بكلِّ شيء.

ثالثاً: بقيت مسألة أخرى نريدُ أن نزيد بها بعض ما قدّمناه وضوحاً وبياناً، يظهر لنا وجه الحقّ فيها بالمقارنة:

فصفة الرحمة أو الرّأفة مشتركة بين الله وبين خلقه في قدْر منها، يقول الله في حقِّ نبيه صلى الله عليه وسلم : {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [سورة التوبة: آية 128]، وصف الله نبيّه بوصفين وصف بهما نفسه، ولكن بيْنَ وصفِ النبي صلى الله عليه وسلم بالرأفة والرّحمة، وبين وصف الله نفسه بالرأفة والرحمة، من الفَرْق كما هو الفرْقُ بين ذات الرّسول صلى الله عليه وسلم وبين الله سبحانه، فقد مات الرَّسول صلى الله عليه وسلم فرحمته ورأفته ذهبتا معه إلى الرَّفيق الأعلى، وإن كان آثار رحمته عليه السلام باقيةً من بعده إلى أن تزول الدنيا، أما الله سبحانه فرحمته ورأفته أزليتان أبديّتان لا تفنيان ولا تزولان.

ومن هنا لا يجوز أن نسمي بعبدالرؤوف مثلاً أو

بعبدالرحيم إذا قصدنا إضافة عبوديته إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم كما يصنع بعضُ الجهلة من المسلمين إذ يسمّون أبناءهم بعبد الرسول، أو بعبد النَّبي، ذلك أن العبودية لا تكون إلا لله وحده سبحانه.

لذا؛ حثّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على التسمية بعبدالله وعبدالرحمن ونحوها.

وقد ذكرنا من قبل أنَّ الله سبحانه مستوٍ على عرشه، وأنّه فوق السماوات العُلى بذاته، وأنَّ استواءه وإن كان معناه في اللغة الارتفاع والاعتلاء، كما في نحو قوله تعالى: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [سورة هود: آية 44]، غير أنَّه ارتفاعٌ واعتلاءٌ مقيّد بأمرين:

الأول: أن الله ليس في حاجة إلى شيء من خلقه، وأنَّه بائنٌ من عرشه، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [سورة يونس: آية 86].

الثاني: أنَّ استواءه لا يماثل استواء خلقه ولا يُشابهه، قال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: آية 11].

وقد يسأل البعض سؤالاً فيقول: إذا ثبت لدينا أنَّ الله مع خلقه بعلمه، وأنَّهُ فوق عرشه بذاته، ولكن ماذا تقول في غير ذلك من الصفات التي لا يمكن بحال ما أن تكون وَفْقَ ما نريد، فالله سبحانه يقول : ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [سورة

القمر: آية 14]، ويقول : ﴿لِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [سورة الطور: آية 38]، ويقول : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [سورة طه: آية 39].

فنقول أولاً: إنَّ هذه الآيات كلها دلّت دلالة صريحة على ما دلَّت عليه جميع آيات الصفات، وهي أن لله عيناً.

ونقول ثانياً: ما قلنا في الاستواء واليد، نقول في العين: قد أثبت الله لنفسه استواءً ويداً ليس بينهما وبين استواء البشر وأيديهم شبَهُ ولا مماثلةٌ، وكذلك العين، فليست هي العين الجارحة كعيون الخلق.

ونقول ثالثاً: بأن من الجهل الفادح بقواعد اللغة العربية وأصولها أن نقول بأنّ الفلك تجري في عين الله بذاتها، فمن يقول؛ فقد أغرق في الجهل، وجاوز حدود اللغة، فإنَّ هذه الآيات الثلاث التي ذكرت فيها العين تدلُّ على شيءٍ واحدٍ، اقتضى الدَّلالة عليه أساليب اللغة، وتنزيه الله سبحانه عن الحلول والاتحاد والاحتياج لشيء من خلقه.

فالمعنى المراد في هذه الآيات الثلاث هو: أنَ الفُلك تسير فوق الماءبأمر ربِّها ورعايته وكلاءته وحفظه، وأنَّ موسى عليه السلام ينشأُ برعاية الله وحفظه ومحبّته، وأنَّك يا محمَّد مهما أصابك من الأذى من قومك فإنَّك محفوظٌ مكلوءٌ بحمايتي ورعايتي لك، مع إثباتِ أصلِ

الصِّفة لله سبحانه.

ومثل هذا كما قلتُ :عُرِفَ في اللغة؛ فإذا أردتَ أن تدلِّلَ على حبِّك إنساناً ورعايته أمره تقول له: إنَّك في العين، فهل هو في العينِ فعلاً؟ أظنّ أن كلّ من يشم رائحة العربية يعرف أنَّ المقصود بذلك هو إظهار ما لهذا الرَّجل عندك من حبٍّ ورعايةٍ، فهو من باب الكناية.

ويُشبه هذا المعنى الذي أراده الله من هذه الآيات الثَّلاث، معنى حديثٍ مشهور يجري على ألسِنة الناس، وهو حديث الولاية الذي يرويه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربِّه: «من عادى لي ولياً فقد آذنتهُ بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنّوافل حتى أُحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه»[1]، ولو سألنا الذين يتأوَّلون العين واليد والاستواء وغيرها من الصِّفات التي أثبتها ربُّنا سبحانه لنفسه عن معنى قوله في هذا الحديث: «كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»، لقالوا في السَّمع والبصر واليد من غير تأويل لها، أما الرِّجل فإنَّهم سيؤولونها، لماذا هذا التأويل؟ ليس إلا تنزيهاً للخالق

---

[1] () رواه البخاري.

سبحانه، فمن أين جاءوا بهذا التفريق الذي لا دليل عليه إلاّ أمر عاطفيٌّ وجدانيٌّ محضٌ؟

والتفسيرُ الحقُّ لهذا الحديث هو كالتأويل للعين التي جاءت في هذه الآيات الثلاث، فالعبد إذا أطاع ربَّه وأخلص له العبادة كان موفّقاً في كلِّ ما يفعل ويقول، فهو إن سمع كان موفّقاً فيما يسمع، وإن أبصر كان موفقاً فيما يُبصر، وإن أصابت يده شيئاً أو تحرّك برجل إلى شيءٍ كان موفقاً فيما يفعله، ولا يُعقل في حقِّ الله أن يكون هو بصر العبد وسمعه، ويده ورجله، وإلَّا انتهينا إلى ضلالةٍ كبيرةٍ في العقيدة ولا بدَّ وهي عقيدة الاتحاد أو الحلول.

بمثل هذا الفهم للقرآن الذي يقتضيه أمران اثنان، وهما تنزيه الله سبحانه عمّا لا يليق به، وقواعد اللغة العربية وأصولها، يمكننا تجنّب الوقوع في الإفك والضّلال الذي وقعت فيه الفِرقُ الضالةُ التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النَّصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلُّها في النار، إلَّا واحدة»[1].

بقي أمر مهمٌّ جداً يجب أن نبينه، وهو أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم عِلِمَ أنَّ أموراً كثيرة من أمور العقيدة –بوحي من ربِّه– ستقع فيها الأُمَّة من بعده فبيّنها

---

[1] () تقدمّ تخريجه.

بياناً شافياً لم يدع مجالاً فيها لمرتاب.

ولو كان في هذه الآيات ما يُريبُ في فهمها لبيّنه صلى الله عليه وسلم، لأنه واجبٌ في حقِّه صلى الله عليه وسلم، إذ لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، وإلَّا لم يكن قد بلّغ الرِّسالة التي أمره الله سبحانه بإبلاغها بقوله: {يَـأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ} [سورة المائدة: آية 67].

وهناك مسألةٌ أخرى مهمة يتنطّع فيها البعضُ بجهلٍ وسوء طويّة، وهي قولهم: كيف تصفون الله بالعصمة وهي ليست من الصِّفات التوقيفية التي تدندنون حولها وتُلزمون الناس بقولها؟

فأقول وبالله التوفيق، وعليه التُّكلان، وإليه القصد والتّوجهُ:

نعم؛ هي ليست صفة من صفات الخالق، لكنّها معنىً لصفات عديدة من صفاته سبحانه، فالله سمّى نفسه الحكيم، والمجيد، والعليم، والحفيظ، والقدير، والمحيط، وغير ذلك من الأسماء الحسنى التي تدلُّ كلها بل كلُّ واحدة منها بمفرده على أنَّه سبحانه يكلأُ الخلق ويرعاهم ويحفظهم ويحيط بهم علماً.

ولا يقع شيءٌ في الأكوان التي خلقها إلا بإرادته وعلمه ومشيئته، فحين نقول: العصمة لله وحده، إنما نذكرُ معنىً

لصفة أو صفات، تماماً كما يقال: الكمال لله وحده إنما نذكرُ معنىً لصفة وصفات، وليس من أسمائه سبحانه الكامل، ولا يصحُّ أن نقول: إنَّ من أسمائه سبحانه المعصوم أو الكامل، فهي صفة معنى.

ونحن نقرأ فيما نقرأ وصف الله بالقِدَمِ، ونقول: الله قديمٌ، وقديمٌ ليست من أسماء الله، وإنما هي معنىً لاسم من أسمائه وهو الأوّل، فَلِتقريبِ المعنى للذهن تُؤوَّل أسماء الله وصفاته تأوُّلاً يُبقي على الصِّفة أو الاسم التَّوقيفي من غير إخلال بهما، ويظلُّ المعنى دالاً عليهما من غير أن نسمي الله أو نصفه به، ولا غضاضة في ذلك البتة، وإلا كيف نقول كما قالوا من قبل: الله قديم، والكمال لله وحده؟[1]

وأخيراً: فإنَّه لم يبقَ مكانٌ قطُّ لقول قائلهم: إنَّ التعطيل –أي: تعطيل آيات الصِّفات عن معانيها– يقابله التجسيم أو التشبيه، وهو ترك آيات الصفات على ظاهرها، ويُفهم منها المألوف في حياة المخلوقين؛ فيُفهم من اليد الجارحةُ التي خلق الله فينا، ويُفهم من الاستواء معناه المحتملُ في جلوس أحدنا على كرسيِّه أو سريره، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

---

[1] () قال شيخ الإسلام ابن تيمية: أن هذه العصمة والكمال والقدم هي أسماء معانٍ، وأسماء المعاني يتصرف فيها التصرف الذي تأذن به اللغة، ولا يصادم أصول الشرع.

ولعلَّ هذا القائل أرادَ الاختباء وراء قوله هذا!! إذ لم يقطع أيّ الوجهين أراد، وإن كان يبدو للمتأمل في أنَّه صريحٌ، وأنه أقرب ما يكون إلى مذهب الاعتزال، الذي أراد أصحابه أن يهربوا من شرِّ التأويل فوقعوا في إثم التعطيل، وأنّه أراد بقوله إلصاق القول بالتجسيم والتشبيه بالسلف وهم منه براء، كما بيّنا في ثنيّات كلامنا فالتقى الإثبات والوقوف مع صريح النصّ من غير تعطيل ولا تشبيه ولا تأويل، وهو الحقّ الذي لا مِرْيةَ فيه.

سنن اللَّه وقوانينه في كونه

إنَّ لله سبحانه سُنناً وقوانين في كونه، لا تتبدّل ولا تتحوّل، موثوقةً عراها بالحكمة الإلهية، تجري إلى مستقر لها، كما تجري الشموس والكواكب، منذ أن كانت، وإلى أن يقضي الله سبحانه في هذا الكون بقضائه، الذّاهب به إلى الفناء، قال تعالى : ﴿وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ [سورة الإسراء: آية 77].

فإنْ بدا للناس أن تحوُّلاً وقع لسنّة ما من سنن الله، أو لقانون من قوانينه فيهم، فهو فيما يبدو لهم بظاهره، أمّا في الحقيقة التي تخفى عن الناس، فهو يجري وفْقَ قدر الله وحكمته.

فإمهال الله للظالم، ومدُّ الحبل له في ظلمه، لا يعني أنَّ الله سبحانه يرفع عنه العذاب والعقوبة، بل هو من الاستدراج الذي أخبر الله عنه، وأخبر عنه نبيُّه صلى الله عليه وسلم حين قال صلى الله عليه وسلم: «إنَّ الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ قوله تعالى: {سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ} [سورة الأعراف: آية 182]»[1].

والعارف بسنن الله وقوانينه في خلقه، لا يحزنه ما

---

1 () الحديث متفق عليه عن أبي موسى.

فات من خير كان يجب أن يكون له، ولا يفرحه ما ينتظر أن يكون له من خير يصيبه فيما يُقبل من يومه، على نحو ما كان يرجوه، فهو لا يتعجل أمراً يرجو خيره، ولا يستبطىءُ أمراً يخشى شرّه، إذ إنَّ ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [سورة الرعد: آية 38].

ومن هذه القوانين والسُّنن الإلهية، قانون المدافعة الذي ذكره الله في موضعين اثنين من كتابه، الأول: من سورة البقرة : ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ الله ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [سورة البقرة: آية 251]، والثاني: من سورة الحج: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ الله كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ إِنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [سورة الحج: آية 40].

وقد أشارت الآيتان إلى أنَّ الفساد إن كان بتعطُّل قانون المدافعة، فإنما هو من صُنع البشر أولاً، ثمَّ هو واقعٌ في الأرض، لأنها مستقرُّ الإنسان ومثوى معاشه، وإن كانت آثار الفساد تتجاوز حدود اليابسة من الأرض، فذلك إنَّما هو من صنع البشر أيضاً، لأنهم هم المكلَّفون المخاطبون من الله بأحكامه وشرائعه، فإن عطّلوها بالهجر والنِّسيان، كانت لهم من الله عقوبة، بانتقاص الخيرات، والبركات وذهاب الأمن والعافية، وشيوع الظُّلم

والباطل، قال تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ...} [سورة الروم: آية 41].

وحتى يستبين لنا قانون المدافعة، ونعرف حقيقته، وكيف يعمل في الحياة والكون، فإنَّه يحسُن بنا أن نعرضه في مسائل:

الأولى: هو قانونٌ يقتضي وجود قوتين متدافعتين، واحدة بإيمانها وحقِّها، والأخرى بجحودها وباطلها، والله خالقُ هذا القانون وواضعهُ في الحياة والكون، إنما وضعه ليظهْرَ به حقّ الإيمان لأنه يحبُّه، ويُذْهبَ باطلَ الجحود لأنَّه يكرهه، فهو سبحانه يحبُّ الإيمان وأهل الإيمان، ويكره الجحود وأهل الجحود، وهو إذ يحب الإيمان وأهله، يحبُّ أن تكون الغَلَبةُ والتّمكين في الأرض لهم، وإذ يكره الجحود وأهله، يحب أن تكون الهزيمة والخذلان والضّعف في الأرض لهم؛ وليس وجودُ القوتين المتدافعتين، يعني أنَّ كلَّ قوة منهما يتكافأ أفرادها في إيمانهم، أو في جحودهم، فللإيمان مراتبه المتفاوتة، وللجحود مراتبه المتفاوتة كذلك، وإذا عَلم الله سبحانه أنَّ تفاوتَ مراتب الإيمان، لا ينزلُ بأفراد المؤمنين إلىما يقارب أدنى درجات الجحود، جعلَ النَّصر حليفهم، أما إذا نزل بهم حتى جاوز الأدنى منها، فظهور إحدى القوّتين يكون مرهوناً بظهور القوة الماديّة فيها، والحِنكة الإدارية، والتفوق الذِّهني والنَّفسي، الذي يقدر على الوصول إلى النتائج السّليمة

وفْقَ مقدِّماتها، وفي الأغلب أنَّ الظُّهور في مثل هذه الحالة يكون للقوة الجاحدة، ليكون ظهورها عقوبةً أو شبه عقوبةٍ تمسُ بها القوة الأخرى التي دلّت بمعصيتها حتى بلغت أعلى درجات الإيمان الكامل الذي كانت ستستحقُّ به النصر من الله.

وهذا الجحودُ من القوة الإيمانية، لا يعني قنوطَها ولا قعوها عن رجاء النّصر الذي وعد الله به عباده المتقين، فإنَّ حقاً على الله سبحانه أن يجعل في الأمة طائفةً دائمةَ الظهور، يُعقد رجاءُ المستضعفين في الأرض جميعاً، وهذا من معنى قوله تبارك وتعالى : {كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِي...} [سورة المجادلة: آية 21].

الثانية: وقانون المدافعة يقضي أن يُدفع الشيء بضدِّه، فالضَّلال يُدفع بالهدى، والجهل يُدفع بالعلم، والشرُّ يُدفع بالخير، والظُّلم يُدفع بالعدل، والبدعة تُدفع بالسُّـنَّة.

وعليه؛ فإنَّه لا تكون غلبةٌ، وعلوٌّ، وتمكينٌ، للحق وأهله إلا أن يكون فيهم من أسبابها من يؤهله للقيام بحقِّ هذه الغلبة والعُلوِّ والتمكين، إذ إنَّ ذهاب هذه الأسباب وفقدانها، فسادٌ للأرض، وتهديمٌ لمعالم العبادة وبيوتها، التي أمر الله وأذن أن تُرفع.

وفساد الأرض يشمل فيما يشمل، تهديم البيوت التي أذن الله أن تُرفع لعبادته، وتهديم هذه البيوت، يعني

بالبداهة شيوع الفساد في الأرض، لأنَّ هذه البيوت مثوى العبادة، التي بها صلاح القلوب هداية، وصلاح العقول علماً، وصلاحُ الأبدان تنزُّهاً عن الذُّنوب والمناكر صيانةً، لذا فإنَّ حقاً لله على العباد، أن يصونوا بيوت العبادة بإعمارها، بأنواع الطاعات والمنكرات، لتظلَّ بيوت العبادة مصونة فتُصان بصيانتها الأرضُ وما عليها، مما خلق الله لمنافع العباد، فلا تكون العقوبة التي توعّد الله بها الخالفين عن طاعته، الزّاهدين في عبادته، القائمين على معصيته، وذلك قوله سبحانه: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} [سورة الروم: آية 41].

الثالثة: وحين لا يعمل قانون المدافعة بقوة الإيمان وفق مقتضى الحكمة الإلهية البالغة، فإمَّا أن يكون ذلك بهيمنة الحقّ واستحواذه على الأرض والحياة والناس، وإمّا أن يكون بتفرُّد الباطل بالطُّغيان والاستحواذ، ولا يكون هذا إلا من خلَلٍ يكون في أهل الحقِّ أنفسهم، فيحدث فيهم ضعفاً يعجزهم عن مدافعة الباطل وأهله.

لذا؛ فإن من حقّ هذا القانون علينا، أن نعيد النظر في أنفسنا بحثاً عن الخلل الذي وقع عليها، وتنقية لها من الشوائب والأكدار التي داخلتها، وإقامتها على سواء الجادّة، بتصفية العقيدة من كلِّ ما يعكر صفوها الفطري، وتنقية الأحكام الشرعية التي استقامت بها الأنفس والعقول على أمر الله سبحانه؛ {فِطْرَةَ الله الَّتِي فَطَرَ

النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} [سورة الروم: آية 30]، {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [سورة هود: آية 112]، وبذلك نُعيد إلى هذا القانون الإلهي حقّه الطبيعي، الذي اهتدت به النَّفسُ الأولى، وتتابعت من بعدها الأنفس المشتقة منها، تحمل تلك الهداية جيلاً بعد جيل، وقرناً من بعد قرن، إلى أن تقوم الساعة.

الرابعة: وإعادة النظر في أنفسنا، لاستظهار الخلل فيها، وتنقيتها من الشوائب والأكدار، وإقامتها على سواء الجادّة، لا يكون إلاَّ من طريقين اثنتين، الأولى: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والثانية: إقامة الحدود والعقوبات الشرعية.

ولا يمكن -لتمام الأمر على وجهه، واستوائه على سوقه- إلا بها معاً، فإذا كان الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، يقتضي وجود طائفةٍ من الأُمَّةِ تقوم به، فإنَّ إقامة الحدود والعقوبات أولى في ذلك وأولى، وبخاصّة وأن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، يستطيعه كل واحدٍ في الأُمَّة، توفّرت فيه عدّته، أما الحدود، فإن إقامتها لا تكون إلا من ذوي شوكةٍ وسلطان، والله يزعُ بالسلطان ما لا يزعُ بغيره كما ورَدَ في الأثر عن عثمان رضي الله عنه، وليس هذا كائناً للطائفة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، بل إنَّ هذه الطائفة التي أوجب الله أن تكون،

هي في حاجة دائمةٍ إلى قوة السلطان، الذي يؤيدها، ويُظاهرها، ويحميها، ويملأ أعين الناس من حُرمتها، فهي لا غنى لها عن قوة السلطان، والسلطان لا غنى له عنها، فكلاهما يعمل لحفظ أمر الإسلام في الأرض، ورعاية أحكامه وعقيدته في أنفس الخلق، هذا بالدّعوة وحمل أمانتها ومسؤوليتها، وذاك بإقامة الحدود، ورعاية أمانتها وأداء مسؤولياتها.

ويمكن القول: إنَّ طائفة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، هي اللسان المبين عن مراد السُّلطان في رعيَّته، وإن السُّلطان، هو السّوط الذي يحمي هذا اللسان المبين عن مراده أن يُقطع، فهما بذلك شيءٌ واحدٌ وإن استقلّ كلٌّ منهما بأمرٍ دون آخر، وحديثٌ واحدٌ من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصوِّرُ هذين الشيئين معاً أدقَ تصوير وأتمَّه، وأحسنه، والآثار الناشئة عن تعطيلها، وذلك قوله: «والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثمّ لتدعُنّه فلا يستجيب لكم»[1].

فإنَّ الوعيد الشديد بالعقاب الذي يعمُّ الأمّة بترك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، لا يُرفع عنها إلا بدفع أسبابه، وظاهرٌ جداً أن أسبابه، انتشار المعاصي، وشيوعُ المنكرات، والسُّكوت عليها، والعجزُ عن مدافعتها.

---

[1] () رواه أحمد والترمذي عن حُذيفة بسند صحيح.

ولا شكّ أن السُّكوت على المعاصي والمنكرات، والعجز عن مدافعتها، يخلق إلفاً بينها وبين النّاس، يحمل في النهاية على الرِّضا القلبي، عن المعاصي والمنكرات.

ويُحدث فيهم خطةً لا يُمازُ بها طيِّب من خبيث، ولا خيرٌ من شر، ولا معروف من منكر، ولا حسنٌ من قبيح، فيصير الشيءُ وضِدّه متماثلين! بل ربما أصبح الشر فيهم خيراً، والمنكر معروفاً، والقبيح حسناً والخبيث طيباً، وحينئذٍ: أين تكون الأمَّة قد أقامت نفسها، ولتنظر من غدٍ القريب هلاكها، كما أصابت الأمم في أمسها، وليس شيءٌ بنافعها إلا إذا ابتدرت الأمر قبل حلوله، والشر قبل وقوعه، وذا لا يكون إلا باعتضادٍ بين السُّلطان وبين طائفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الخامسة: وإذا كان نفاذ قانون المدافعة في الخَلْق مرهوناً بقيام المؤمنين بحقِّه، فإنَّ حقاً على الله أن يُهيِّىء لهم الأسباب التي يقوَوْنَ بها على القيام بهذا الحق، وحقّه على المؤمنين أن يحسنوا حراسته فلا يغفلوا عنه، وأن يكونوا أُمناء عليه فلا ينتقصوه، فإن هم ضَعُفوا عن أداء هذا الحق، فقد تعطَّل نفاذه، وتفرَّد أهل الباطل بسلطانهم، فعاثوا في الأرض فساداً، ونشروا أعلام ظلمهم، وعلَوا ببطشهم وجبروتهم.

وهذا ما نشهده واقعاً فينا اليوم، لا نكاد نرى ملاذاً نلوذ به، ولا ملجأً نلجأُ إليه، ولا شِعباً نصعد فيه، وضاقت علينا

الأرضُ بما رَحُبت، وسُدَّت في وجوهنا السُّبل، وأظلمت في أعيننا الآفاق، وأفلتت من أيدينا الآمال مبعثرةً، وتطاير من فوق رؤوسنا الرّجاء جُذاذاً، وأحط بنا اليأس من كلِّ جانب، وتتابعت فوق أرضنا البلايا الثِّقال الطّامات، والمصائب الجامات الجاثَّات.

ننظر يمنةً فلا نُبصر إلا ضياعاً، وننظر يسرةً فلا نرى إلا تيهاً، وننظر من فوقنا فلا نشهد إلا قتاماً، والأرض من تحت أرجلنا تميد وتضطرب، وتكاد تنْشقُّ لتُغوِّرنا في أعماقها، والحسابات الرّقمية تدور في أفلاكها الجارية إلى مستقرٍّ لها، تُنبئنا وتحدِّثنا أن لا منجى من الله إلا إليه، ولا مخرج من سوء البلايا إلَّا بالرُّجوع إليه، ولا أمن ولا عافية ولا رخاء إلا بالاحتكام إليه، فكيف والآيات والسُّور القرآنية والأخبار والكلمات النبويَّة، تخبرنا وتحذِّرنا، وتقصُّ علينا من أنباء ما قد سبقَ من الأمم، وما حلَّ بهم من النِّقم، ما يكفي أن نستشرف به عوالم الغيب الآتية، فنبصر فيها مصائرنا المكدورة المهينة تدفع بها إلى قيود الذلُّ، فنقعد بها لا نستطيع حراكاً نخفِّف به عن أنفسنا ولو ساعة من مرارة ذلك الذلّ.

ونعلم في قرارة أنفسنا أنَّ مسؤولية الأمم والشعوب تقع على عواتقنا، فإذا كانت هذه القيود مانعتنا من الحراك لنخفِّف بعضاً من ذلك الذّلِّ عنَّا، فهل هي مانِحتُنا شيئاً من الحركة، نتخفّف به من تبِعات المسؤولية التي

تقع على عواتقنا؟

إنَّ مفاتيح قيود الذُلِّ هذه ليست في أيدينا، إنّها في أيدي أعدائنا، فهم إن شاءوا فتحوا أقفالها، وإن شاءوا لم يفتحوها، ولسنا نملك من الأمر شيئاً، إلا أن نأخذ مفاتيح هذه الأقفال من أيدي أعدائنا، وليس لدينا من القوة ما نأخذ به تلك المفاتيح، وحتى يصير لدينا مثل تلك القوة فلا بدّ من البحث عن سبيل نمتلك به هذه القوة، وليس يخفى أنّ البحث سوف يستغرق زماناً طويلاً، لا ندري ما الله فاعلٌ بنا فيه، فإنّ عُتُوَّ أولئك الأعداء، وتسلطهم على كنوزنا، وحيازتهم قدراتنا المادية، وطاقاتنا الفكرية، والتبعية الصّاغرة المهينة التي تسربلنا بها، حتى غَدَت هي زينتنا، ووشْيَ حياتنا، وزُخرفَ ألسنتنا، وبهجة محافلنا، كلُّ أولئك أجاءنا إلى ظلٍّ أسودَ قاتم، لم يعد بوسعنا ونحن فيه إلا أن نستغيث بهم قائلين: واغوثاه، وانصيراه، أما خالقنا، وربُّنا، وربُّ كل شيءٍ، فقد نسيناه أو أُنسيناه!! وأمسينا نبحث عن ذواتنا المغيَّبة في جوف هذا الظّلّ الأسود فلا نجدها!! وإن نحن عُجْنا باللائمة على الناس، فنحن أحقُّ باللائمة إذ {هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} [سورة الزمر: آية 9].

لكن سُـنَّةً أُخرى من سنن الله، تُخفي نفسها في أستار الغيب الرّاقب حياةَ الناس، لا تلبث أن تهتك تلك الأستار، وتمضي مُسرعةً تبحث عن مستقرِّها -حينئذٍ

يأذن لها الله– في أرضٍ فسقتْ عن أمر ربِّها، واستطالت بمكرها السيِّء في المستضعفين، وعَظُمت في أعينهم ببطشها، وجبروتها –لتلقي بجرانها العدْلَ في تلك الأرض، فتُنيلها ما أنالت الناس، وتنزل بها ما أنزلت بهم، وتقطع يدها التي أحلت بهم من ألوان الظُّلم والهوان والمسغبة، ما لا قِبَل للجبال والرّواسي بها.

تلكم السُّـنَّة صاغها النبي صلى الله عليه وسلم لنا في قوله: «حقٌّ على الله عزّ وجلّ أن لا يرفع شيئاً من الدُّنيا إلا وضعه»[1].

وحتى تقع هذه السُّـنَّة، وفق الحكمة الرَّبانية، وتُصيب الأرض التي أذن الله أن تصيبها، فلا بدَّ وأن تقع في عقول الأُمَّـة علماً وفقهاً، وفي قلوبها هدايةً وإيماناً، وفي أبدانهم سلوكاً وعملاً

ومِن أجلّ الفقه الذي يجب على الأمَّة أن تحرص عليه، أن تنظر في تحرُّك السُّنن الإلهية، وتقلُّبها في الآفاق، وتفاعلها وتداخلها في الحياة والإنسان والكون، وتعقد بين هذا الفقه الجليل، وبين قوله صلى الله عليه وسلم: «إنّ الله يرفعُ بهذا الكتاب أقواماً، ويضعُ به آخرين»[2].

---

1 () رواه البخاري عن أنس.

2 () رواه البخاري عن أنس.

ومن الذين يرفعهم الله بكتابه، أولئك الذين أنعم الله عليهم بالبصيرة النافذة في الأشياء والأحوال، وملَكهم بالعلم والتّقوى فراسةً، يقرؤون بها الغيب المكنون بالحدس والتّقدير، لا بالكشف والرؤية، فتكون كلمتهم ظاهرةً بهم، ويكونون هم ظاهرين بها، ظهورٌ من ظهورٍ بظهورٍ، فتسعد الأمَّة بعلمِهم الباني، وشوقهم المفضي بتقواهم إلى رحاب العرش، وعطائهم الباذل الجمِّ، ورفع أقدارهم بالصِّدق في طاعته، وأيّدهم بروح من عنده، وأوفاهم على مطالع النّور برحمته ومن رحمته، إنّهم الفئة التي أكرمها الله بالقيام بأمر الله في كلِّ زمان، وإن كان من يعصيهم من الناس أكثرَ من الذي يطيعهم.

ولا يَحسُنُ أن يغيب عنّا، أنَّ الله سبحانه خاطب عباده بالأحكام المقدور عليها، التي لا يشقُّ عليهم حملها ولا يكون من حرج عليهم في فعلها، وهذا تشريع لهم في حياتهم، يهديهم إلى كلِّ أمرٍ من أمورهم، ولا يُضلُّهم في سعيهم أينما كانوا، وحيثما كانوا، وهذا من رحمة الله بهم، التي وسعت كل شيء.

وإذ ذلك كذلك، فإنَّ الأمَّة اليوم وهي ترزح تحتَ أثقال البلاء –تجني من قلوبها، وأبدانها، وأموالها، وأنفسها، أعزّها وأغلاها، وقد أمكنت أعداءها من كلِّ غالٍ ومُرتَخَصٍ من أمور دنياها –لا تجد ملاذاً بعد الله سبحانه، إلا في تلك الفئة التي ترسم لها خطّ سيرها بكتاب الله وسنَّة نبيه

صلى الله عليه وسلم، الفئة الناجية التي اصطفاها الله بانتسابها إلى نبيِّها الأكرم صلى الله عليه وسلم اقتداءً وامتثالاً وعملاً[1].

والمقدور عليه المستطاع في زماننا هذا –ممَّا يقتضيه النّظرُ العلميُّ الإيمانيُّ في سُنَّة المدافعة– هو توجيه الأمَّة توجيهاً عقديّاً، تربوياً، يؤهلها إلى تلقِّي تبعات العمل المستقبلي، من غير ضعفٍ ولا تراجع، وهذا لم يبق إلا في ثلةٍ قليلةٍ جداً، أما الجمُّ الغفير فقد صاروا إلى يبابٍ وهبابٍ.

ولعلّه يبدو لكثير من الذين يستحثّون الزّمان أن يعجَل لهم بدولةٍ تحكم بما أنزل الله، أنَّ العمل في دائرة المقدور والمستطاع في هذا الزّمان يُبطىء في قيام هذه الدّولة، لأنه يستغرق زماناً طويلاً، وربّما قعد بالكثيرين عن مواصلة السّعي، حتى فيما هو مقدورٌ مستطاعٌ، أو أجحدهم به بالمرّة، وعليه فإنَّ الانتقال السَّريع من هذا الأمر المقدور المستطاع لا ينبغي أن يدفع عنه في صُدورِ من يستعجلونه، ممَّن لا يجدون في أنفسهم العجز عنه بالرَّجاء في نصر الله وتحقيق موعوده لهم.

---

[1] () ولست أدري –والأطماع الدنيوية قد أبدت نواجذها في تلك الفئة، وصارت تتهاداها بأسبابها– هل بقي لها من علمها، إلا ما يزيدها استمالة إلى الدنيا، وتعظيم أسباب الفرقة والتنازع بينها، وهذا ظاهر في أدعياءِ العلم أكثر من غيرهم.

وحسبُنا أن نقول لهؤلاء: أن يطول الزّمن بجهدٍ يُبذل، ولا يقطَعَه استدراجٌ ماكرٌ يُبيِته أعداءُ الله خيرٌ من أن يقصُرَ الزّمنُ بجهد يُبذل ويبترّه تدبير ماكرٌ، يُبيِّته أعداء الله للأمَّة، فيصيبها العجز في كل شيء، وعن كل شيءٍ.

والتجارب المريرة التي سارت ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاءً، شرقاً وغرباً، طولاً وعرضاً، وأملَت على الأمَّة دروساً وعبراً، في الماضي والحاضر، يجب أن تظلّ محفوظةً في الذّواكر، وأن تُكتَب وصايا عزيزةً للأجيال المتعاقبة، يُحرص عليها في ورعٍ ورجاءٍ في ذات الله سبحانه، فتفيد منها في أناةٍ وصبرٍ، وهذا شيءٌ من تأويل قوله تعالى: {يأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} [سورة يونس: آية 57].

والذين لا يجدون في أنفسهم العجز عن السّعي لبناء دولةٍ تحكم بما أنزل الله، أولى أن ينتفي العجز عنهم، وهم يُعدُّون الأمَّة إعداداً مؤسساً على العقيدة النَّقية والأحكام الشرعية الصافية، فيكون منهم طائفة آمرةٌ بالمعروف، ناهيةٌ عن المنكر، داعيةٌ إلى الخير، باذلةٌ في ذلك كلِّه من مالٍ تملكه، وعلمٍ تعرفه، وجهدٍ تدركه، راغبةٌ فيما عند الله من برٍّ وثواب، راجيةٌ أن يكون لها من ذلك، ما يمهِّد السَّبيل أمام من يخلُفها بجهدٍ ليس يُعدُّ إلاَّ يسيراً إلى جنب الجهد الذي بذلته، وأعدّت به الأسباب والوسائل

التي قرّبت لها الغاية، وزوت لها البُعدَ، وأدنت منها النِّهاية.

تُخبرنا بذلك سيرةُ المصطفى صلى الله عليه وسلم، في عهدَيها المكّي والمدني، حيث امتدّت فترة الأول منها، بزيادة ثلاثِ سنين عن الفترة الثانية، إذ الجهد الذي يبذل في بناء الجماعة، وتأسيسها، أكبر من الجهد الذي يُبذل في بناء الدّولة وتأسيسها، لأنّ الجماعة هي التي ستتولّى بناء الدّولة وتأسيسها، مالم تكون هذه الجماعة، متمكّنة من قدرات هذا البناء والتأسيس، فإنَّها تبعدُ كثيراً جداً عن الغاية التي تنشدها.

وحين نعقد مقارنةً بين العهد النَّبوي وبين أيِّ عهدٍ جاء من بعده، فإنَّنا نجد الفرق شاسعاً بينهما، من حيث القُدُرات التي يجب إعدادها للبناء؛ سواءٌ أكان بناء الجماعة، أم بناء الدّولة، ومن حيث الوقت الذي تستغرقه عمليّة البناء، فهناك نبيٌّ يوحى إليه، يتلقّى من ربِّه، ويلقي ما يتلقاه في مسامع قلوبِ أحسنِ ما عُرف عنهم التلقّي في كلِّ أجيال البشر وقرونهم.

وهناك سذاجةُ الحياة، وسلامة الفطرة، واستواء الفضائل، ومَلَكاتُ الأمَّة المختارة لأشرف رسالة، ونقاءُ البيئة من عَكَر الفلسفات، والثقافات، والمدنيّات المجلوبة بالآفات العقلية، والبدنية، والنَّفسية، والاستعداد الذّاتي المكتسب، هذه كلُّها وسواها أمكنت للجماعة المؤمنة في العهد المكي أن تستوعب مضامين الرسالة

في فترةٍ زمنيةٍ وجيزةٍ، لتنتقل بها إلى العهد المدني، لتؤسس دولة شاهقة البناء، قوية الأركان في فترة زمنيةٍ أوجز.

وهي بهذا؛ تعملُ -حقيقة- على اختصار الزّمن ما أمكنها ذلك، ليقرب المسافة بينها وبين الهدف الأسمى، الذي لا يغيب عن عقل جيلٍ من أجيالها، ولا عن عقل قرنٍ من قرونها، بل يظلُّ حاضراً في صدورها، حتى يصبح حقيقة واقعة، ماثلة لكلّ الشعوب والأمَّم، ولكأنما يريد أن يثبت للعالم والكون، أنَّ الأمَّة في ماضيها هي الأمَّة نفسها في حاضرها، وهي الأمَّة نفسها في مستقبلها، لكنْ على الأمَّة أن لا تُدخل مادةَ الزّمن بُعداً أو قُرباً في حسابها، فالنّجاح كالفشل، قد يطولُ زمانُ الأوّل ويقصُرُ زمانُ الثاني، وقد يكون العكس، وهذا ما ألقى به النبي صلى الله عليه وسلم في أسماع أصحابه وقلوبهم رضي الله عنهم، وهم في مكة، قبل الهجرة، وسياطُ العذاب تمزِّق أبشارهم، وألسنّةُ الكفر تسخر منهم، وتدعوهم إلى الخروج عن الخطّ الذي خطّه نبيُّهم صلى الله عليه وسلم من أوّل يوم جاءهم فيه، حين قال لهم: «ولكنكم قوم تستعجلون».

فأين الأمَّة من هذا كله، في كلِّ قرونها وأجيالها وبخاصّة في زماننا هذا، الذي اختلطت فيه الأمور اختلاطاً صار من الصَّعب معه التمييز بين الأضداد؟

إنَّ الأمَّة في كلِّ قرنٍ من القرون التي تلت القرن الأوّل، تحتاج من الزمن مدّة، تختلف باختلاف حال القرون، وقد تبلغ حاجتها، حتى تستقرّ في مستقرِّها الآمِن في زمانها هذا قروناً، ليس ينبغي أن تُدخلها في عدِّها الحسابي، فإنَّ نجاح الأمَّة في قرنٍ ما، لا يُعدُّ مقياساً صحيحاً لتحقِّق على أساسه نجاحاً من قرنٍ آخر بعده، فإنَّ حاجات القرون، وأنماط عيشها، وطرائق تفكيرها، تختلف من قرنٍ لآخر، لذا فإنَّ عليها أن تتخير أو تبتكر من الوسائط المشروعة، ما يمكنها من تحقيق موعود الله، من غير تعجُّل ولا استبطاء، فإنَّ الله لا يبخل على عباده المؤمنين بوعده، حين يعلم أنَّهم أهلٌ له.

ملحقــان جديــدان

وفوائد علمية وضوابط منهجية

1- كان لزاماً أن لا يخرج هذا الكتاب بطبعته الجديدة، إلا بهذين الملحقين اللذين يحملان درءَ الشبهات والأغاليط التي نسبها لي واحد من إخواننا الدعاة غفر الله له وهداه.

2- وقد صنع الأخ الفاضل «فتحي بن عبدالله الموصلي» فهرسة لطيفة لمادة الكتاب، رتَّبها في فوائد علمية وضوابط منهجيَّة -جزاه الله خيراً- قرَّب بها مادة الكتاب، ويسَّرها في صورة حسنة.

بين يدي الملحقين

لست –والذي نفسي بيده– من أُولئك الذين يحبون أن يضيِّعوا أوقاتهم بما يسمَّى بالردود العلمية المتهافتة، ولا من هؤلاء الذين ينفقون شطراً من أعمارهم في دعاوى حائصةٍ عافصةٍ –والناس– والحمد لله– يعرفون مني هذا.

لكن أمراً فرض عليَّ أن أدعو قلمي، فأملي عليه ردّاً على «فلانٍ»، وفلان هذا ما كان قد أرضع نفسه لبناً متغيِّراً طعمه، كريهةً رائحتُه، فأساغه –عياذاً بالله– على ودادٍ للشيطان غير كاره له، ولا مُكْره عليه.

ولكأنَّ فلاناً هذا –أصلح الله له شأنه– لم يعفَّ عن الإعجاب بنفسه، فغدا إليها والعُجب ملأ برديه، وقد أفرغ مخاض قلبه في جوف قلمه، ودفعه إلى صفحات كتابي على غير هدى ولا كتاب منير، وأناله قسطاً وافراً من عرضي في غير حرجٍ ولا تأثُّم، ولا خوف من عاقبة، ولا حياءٍ من تلاميذه والناس، وحمَّلني من زور القول الخفيِّ والجاهر ما لا يخطر ببال جاهلٍ ولا سافك آفك.

ولست في شكٍّ من أمري، ولا أنا براغبٍ عن حقٍّ يبرأُ منه الباطل، ولا بناءٍ بجنبي عن مأوى كلمة صدقٍ، ولا

بخائفٍ من اجتماعِ أقلامٍ تمعَّطت بطانَتُها (!!) وتهتكت ظِهارتُها (!!)

وإني لآملُ أن يأتي يومٌ على هذا «الفلان» قبل موته يتوب إلى ربه متاباً، ينجو بها من مرذول فقهه وقبيح كلامه –وهو يعلم من نفسه إن كان عنده بقيَّةُ خشيةٍ من ربه، أنه لم يقرأ كتابي: «هي السلفيَّة»، أو أنَّه لم يفهم شيئاً ممَّا قرأ إن كان قرأ– فلماذا يُحِبُّ أن يُبْقيَ على وشيجة الحب سالمةً بينه وبين الشيطان؟!

فكان مني –ولا بدَّ– أن يكون هذا الردُّ لعلَّ فيه تبياناً مقسطاً، لكل محبٍّ للحق، راغب إليه لا عنه!!!

والسلام على كل متبع للهدى.

الملحــق الأول

دفع شبهات أوردها صاحبها

لم تعرف البشرية في قرونها كلِّها نبياً أشرف ولا أفضل ولا أتمَّ خَلقاً وخُلقاً من محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم.

كما لم تعرف ديناً أحكم، ولا أكمل، ولا أوفى بحاجات البشر وضروراتهم من دين الإسلام الذي ارتضاه الله للناس كافَّة. فمن أعرض عنه فقد أوضح بعقله في ضلال، وأشرف بنفسه على هلكة، وأناخ براحلته في عرصات الأفك الموبقة في أليم العذاب، ذلكم أنه قد أكذت محمداً صلى الله عليه وسلم، وأنزى نفسه بكل آثامنها على الوحي، وارتقى بها عدواناً واستكباراً على أهل الأرض والسماء.

وليس يعابُ على الكافر –وهو في كفره– أنه مرتكس بكفره في حضيض الأفك، وقائم به في درك الزور والبهتان، كواحدٍ يُحسب على أهل العلم، أشهده الله بما أوتي من علم، أنه لا إله إلَّا هو، فابصر بها بالحق فغُمَّ عليه، ورأى بها الباطل فحبب إليه.

ومما يُحزن النفس، ويعكِّر صفوها، ويدمي صفحتها، أن يكون انتهاك لحدود الله، وطمسٌ لمعالمها، وردٌّ وتكذيب علميٌّ وعمليٌّ لها. واستخفاف بما حقَّت به من أوامر ونواه. ومِمَّن؟! ممن اشرأبت إليهم الأعناق، من بعض من يَعدُّون أنفسهم أو يعدُّهم الناس دعاةً على منهج الكتاب والسُّـنَّة، خالط نفوسهم سوء الظن، فأبوا إلا أن يرتدوا سربال العدوان، فأنسوا حقَّ إخوان لهم عليهم، واتخذوا لأنفسهم مأوى في أكناف الهوى.

وكان من هؤلاء واحدٌ من أخواننا أحسنَّا فيه الظن زماناً طويلاً، وآثرناه بهذا الظن على كثير ممن نُحبُّهم ونصطفيهم بمودتنا، وأحللناه من قلوبنا السويداء، وما ذُكر أمامنا إلا وأثنينا عليه، وقلنا فيه خيراً، وذببنا عن عرضه ابتغاء مرضاة الله.

وبالأمس، أبدى لنا صفحته، وكشف بسوء قول عوار نفسه، وأهاج شيطانه، أو أهاجه شيطانه لا أدري!! فاستطال بقلمه ولسانه من غير علم ولا هدى ولا كتاب منير، وقذف بوغر صدره، وحميم قلبه، ورضخ هواه –عليَّ، وعلى كتاب ألَّفته تبياناً لحق، ودفاعاً عن منهج صِدقٍ، وتأليفاً لقلوب فرَّقها الجهل والهوى، ودرءاً لفتنةٍ توشك أن تحطَّ بسخيمتها بين ظهرانيهم، وقطعاً لغرب شرٍّ يُراد بهم، ومحواً لشبهاتٍ نَسَجها أعداؤهم لهم ظلماً وكذباً هذا الكتاب هو: «هي السَّلفية نسبة، ودعوة،

ومنهجاً».

وكنت أرجو أن يكون هذا الأخُ منصفاً على الأقل ولو في كلمة واحدة من كلماته وعباراته، التي وصف بها كتابي أو كان مؤدِّياً حقّ العلم والقلم. أو كان على شيءٍ –ولو يسيراً– من الحق فيما سوَّد وكتب، إذاً لحقَّ لي أن أقول: اجتهد في نقده، غفر الله له، ولكل مجتهد نصيب من صواب أو من خطأ كما يقال، ولكان له حقٌّ عليَّ أن أعذِره، وألتمسَ له وجه الصواب حتى في خطئه، وأحمَد له صوابَه، وأدعوَ له بالتوفيق والسداد.

لكن أنْ يكون هذا، وشيءٌ من ذلك كلِّه –والله– ما كـان أبـداً، فحسيبك الله يا هذا، وما كان أغناك وأغناني عن أن تقول فيَّ. أو أن أدفع ما تقول.

ومن باب إحسان الظن فيك أقول: لعلك –لانشغالك بشؤون الدَّعوة وهمومها كما يقال، وكثرة أسفارك– رأيتَ الكلمات أو سمعت به، فكلَّفت أحداً من أصحابك أو مريديك أن يقرأه، ليضع لك تقريراً عنه، يبين لك منه سواءته!!! التي صارت سَمة النقد في زماننا هذا. وكان من هذا الصاحب أو هذا المريد، أن اختار لك هذه النتف أو المقتطفات أو المبتسرات، فبنيت عليها مذكرتك ذات الصفحات الخمس، التي قام مريدوك وأصحابك بتوزيعها أولاً –قبل أن تنشر أجزاء متفرقة منها في مجلة الفرقان، في حوارك المزعوم تحت عنوان «حوار مع

الألباني».

ولعلك يا هذا لم تعِ الأخطاء الشنيعة الفاحشة، التي وقعت فيها، وجعلت من نفسك معها، مُطَّلعاً على ما تُخفيه قلوب العباد، ولقد والله أسأت لنفسك قبل أن تسيءَ لغيرك، وإن كان هذا شأنكَ مع الناس يا هذا فويلٌ لك ثم ويل، ثم ويل، والله إن تهمة واحدة من التهم التي سخّمت بها مقالك أو مذكرتك، كافيةٌ أن تُحبطَ كثيراً من صالح عملك. وتجعلكَ أقربَ إلى الإفلاس منك إلى الغنى بعملك.

لقد قلت فيَّ قولاً لا يقال إلا في كافرٍ صريح الكفر أو في منافق عظيم النفاق، قلت وما أفظع ما قلت: قلتَ «هذا إلى أمور منكرة عظيمة» جعلت ما صوَّره -أي أنا أو الكتاب لا أدري- من السَّلفية، قاديانيةً جديدة، وصوفيةً مستحدثة، لبست لباس السَّلفية زوراً وبهتاناً، أو ثعلبيةً ماكرة خبيثة، أو بيعاً للدين بالدنيا، أو وقوعاً في فتنة عمياء، حسيبك الله يا هذا، فلقد والله قلت قولاً، لو مزج بماءِ البحر لأفسده.

ولكن لا أدري لم حذفت العبارات والكلمات، التي كنت تعقِّب بها على تلك المقتطفات أو المبتسرات التي بنيت عليها مذكرتك، لقد خانتك شجاعتك في باطلِ ما كتبت فيها، فلعلك قدَّرت أن ذكرها في مقال ينشر في مجلَّة يسيء إليك إذ هي ليست من النقد الموضوعي

العلمي كما يقال في شيء، فاحتَبَسْتَها، وأخفيتها، وأخرجت للناس، ما لا تعاب به عندهم، فحسيبك الله، وزادك حرصاً على الشهرة، وسأُورِدها جميعَها بنصِّها كما وردت في مذكرتك.

أناشدك الله إن كنت تخشاه –هل اتقيت الله فيما كتبت؟! هل كنت عادلاً مقسطاً، أم ظالماً قاسطاً فيما كتبت؟! هل ابتغيت وجه الله والدار الآخرة فيما كتبت؟! ألا تحفظ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتقِ دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»، ووالله، الذي لا يحلف إلا به، إنك لمن الظالمين العادين فيما كتبت، فتُبْ إلى رشدك، وحاسب نفسك، وانخلع من مظلمة قلَدَّتها عُنُقَك.

لو أنَّك تريَّثت، ونظرت في عاقبة سوء ما صنعت، وأمَّلت في أخيك خيراً، وأحسنت فيه ظنّاً، لما أقدمت على الذي صنعت، ولكنت أمضيت على نفسك نصحٍ، إن كنت رأيت فيَّ أو في كتابي ما يسوءُك، أو علمت فيه شيئاً يخالف عن العقيدة أو مقتضاها. فكان منك اتصال ولو بالهاتف، فتدلَّني على ما فيه من مخالفة واحدة أو مخالفات، فحسيبك الله.

وليس والله من طبعي ولا من خلقي أن أنتصر لنفسي، حتى من أولئك الأشرار، الذين صَخِبُوا عليَّ. وأُمعنوا في إذايتي، والطعن عَليَّ سراً وعلانية، وألَّبوا

عليَّ العامَّة والخاصة، فما عهدت نفسي والله إلا سمحاً سهلاً عفوّاً «وما ازداد عبد بعفوٍ إلا عزَّاً»[1].

ولا تحسبن ما أصنعه الآن انتصاراً لنفسي، إنما هو بيان وإيضاح، لمن يَحسِب نفسه على منهاج السلف الصالح، ولو انتحالاً!

وليتك يا هذا أن لا تكون وأنا أكتب إليك لتقرأه أو ليَسمَعَه من الذين قال الله فيهم: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَّا لَّيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ} [سورة النور: آية 15]. فلعلَّ الله يفرح بتوبةٍ منك أنت آتيها. فلا يكون بعدُ منك بهتٌ مائرٌ، ولا خرص مائنٌ، ولا إفكٌ عائر، فقد كفيتَ من ذلك كله، وحسبُك.

وإليك يا هذا بعض ما افتريت عليّ وفضح أمرك بالجواب عليه.

(<u>الفرية الأولى</u>): قلت مستنكراً عليَّ: يقول أي أنا: «إن الجهاد لا يفتح بابه، ولا يرفع رايته، ولا يأذن به ولا يدعو إليه إلا إمام واحد، رضي من رضي، وكره من كره» ثم يقول أي -أنا- «ونسأل لماذا لا تستطيع الأمَّة القيام

---

[1] () لكأنَّما أراد الله أن يكون منه ابتلاءٌ لي، يتجدَّد ويزداد، ويتعاظم وليته يكون على أيدي من يخالفون عن المنهج -على حدِّ المصطلح الحادث- فكان يهون، لكن أن يكون هذا الابتلاء المتجدد للتعاظم من أولئك الذين يزعمون السَّلفية بمنهجها، فإنه والله لهو البلاء الأمرُّ، والحبل -كما يقال- على الجرار!

بأعباء فريضة الجهاد؟ ذلكم أن الجهاد لا يكون إلا بإمام عامة، وإذن منه، وهو مثل الحدود والعقوبات، فهذه لا يوقعها، ولا يقيمها إلا إمام عامة» ثم قلت يا هذا «ويعني –أي أنا– أن الأمَّة لا تأثم بترك الجهاد اليوم، فإذا لم يكن في وسع الأمَّة القيام بحق الجهاد لغياب الأمير، الذي يعقد رايته، ويأذن فيه، ويولّي أميراً على الجيش، فإن الجهاد يكون من التكاليف غير المقدور عليها، ولا تأثم بتركه».

وخلصت من هذه الفقرات التي سقتها يا هذا، إلى أنني وضعت قاعدة جديدة في حكم الجهاد اليوم وهي «أفضل الجهاد اليوم هو الإمساك عن الجهاد».

من أنت يا هذا حتى تدَّعي عليَّ أنني وضعت قاعدة جديدة في حكم شرعيٍّ قرَّره الله سبحانه؟ أتعرف ما القاعدة، ومن الحقيق بوضع القواعد في الدين؟ أجعلتني أو جعلت نفسك نداً لله، ألا اتقيْت ربك، وحرصت على حسناتك أن تذهب سدى؟!

الحقُّ، والحق أقول يا هذا أنك... كنت صادقاً في نقلك العبارات والفقرات التي نقلتها من الكتاب، فلم تزد حرفاً ولم تنقص حرفاً، كما كنت صادقاً في ذكر الصفحات التي عزوت إليها نقولاتك، لكن ليتك لم تصدق هذا الصدق الذي، الكذبُ أهدى سبيلاً منه، وأقوم قيلاً، أو لعلك أحطت بعلم لم يحط به أحدٌ سواك في الحديث الصحيح

الذي رواه الثقات عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، قالت: لم أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرخِّص في شيء مما يقول الناس كذب إلا في ثلاث، الحرب، والإصلاح بين النَّاس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها، فهل كذبك عليَّ وعلى كتابي واحد من هذه الثلاث، أم أن الله أطلعك على أمر رابع خصَّك به دون سواك يا هذا؟

ومثَلُكَ في نقل هذه النصوص مبتورة من كتابي، مثل الذي يقرأُ قول الله : {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ} أو الذي يقرأ قوله تعالى: { لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ } ولا يزيد عليهما. فهلاَّ قرأت قوله تعالى: {الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ} وقوله: {وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ}، لَيتمَّ المعنى المراد؟!

ولسوف أريحك من عناء النظر في الكتاب، لتأتي بالعبارات والفقرات الموضحة لكلامي المبتسر، الذي ظلمت نفسك باقتطاعه من غير فهم ولا تثبُّت، أو بعمْدٍ وتقصُّد.

قلت (أنا) يا هذا في صفحة (208–209): (والله سبحانه وهو يخاطب الأمَّة بالجهاد لا يخاطبهم به ليعجزهم عن القيام بحقه، فهو من الخطابات الشرعية التي تدخل في القاعدة الكلية للتكليف) { لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا}، فإذا لم يكن في وسع الأمَّة القيام بحق

الجهاد، لغياب الأمير الذي يعقد رايته، ويأذن به، ويولي أميراً على الجيش، فإن الجهاد يصير من التكاليف غير المقدور عليها، ولا تؤثّم الأمَّة بتركه، إلا أن رَضيتْ (أي كانت راضية في نفسها محبَّة لترك الجهاد) تأمل عبارة (إلا إن رَضيت) يا هذا. «وليس عليها إلا أن يظل الجهادُ حاضراً في نفوسها، ترقب اليوم الذي يهيّىء الله أسبابه، فتستجيبَ لندائه، والإثمُ يصيبُ من ولَّاه الله أمر الأمَّة، وجعل مقاليدها في يده، وحتى هذا الذي ولَّاه الله أمر الأمَّة، لا يؤثَّم بترك الجهاد إن كان لأسبابٍ، ليس في وسعه تلافيها، ولا في طوقه اختيار سبيل غيرها، فإن له مندوحةً عن الإثم، ولا يكلف به، لأنه عجز عن القيام بحقه واستجلاب أسبابه، شأنه في ذلك شأْنَ الأمَّة» ا.هـ.

فهل من يقول هذا الكلام أو مثله، يقول بسقوط فريضة الجهاد؟ حسيبك الله يا هذا.

وتأمّل ما قلته أيضاً: قلت أي أنا: ولا عذر لأمراء الأمَّة بترك الجهاد،فإن من حق الأمَّة عليهم أن يتداعوا إلى أمرٍ سواءٍ بينهم، وأن يولّوا عليهم الأحق منهم بالولاية. وأن لا يكون الحرص على الإمارة فيهم سبباً في بقاءِ يد الأُمَّة مغلولة عن الجهاد، لإعلاءِ كلمة الله في الأرض، وبسط نفوذ الإسلام في الشعوب، وإقامة حكم الله بينهم.

ثم قلتُ في صفحة (215-216): أن من يقول بتعطيل فريضة الجهاد في أي وقت من الأوقات يسقي

نفسه من سوء العذاب ما يسقيها، وفرق واسع جداً بين من يقول بتعطيل فريضة الجهاد، وبين من يقول: يجب الإعداد الصحيح لها، ولو استغرق هذا الإعداد سنين طويلة، لأن في الإعداد إمتثالاً لقوله تعالى: {وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ الله يَعْلَمُهُمْ} [سورة الأنفال: آية 60]، ومن أنعم النظر في هذا النص، يرى أنه يكاد ينطق بوجوب الإمساك عن الجهاد حتى يكون الإعداد على تمامه، وقد يكون في الإعداد ترك الإعداد، إذ الإعداد يقصد به إرهاب أعداء الله وأعداء المسلمين وإذا لم يتم على الوجه الذي يُدخِل الرعب في قلوبهم، ويؤرِّق عليهم مضاجعهم، وينفي الراحة والاستقرار والأمن عنهم، فليس هو الإعداد المطلوب، وإلا فما معنى قوله تعالى: {تُرْهِبُونَ}.

والإعداد يكون بالوسائل الشرعية التي تحقق الغاية منه –وهو إرهاب الأعداء– وهو أقل غرض من أغراض الجهاد، فكيف وليس لدينا من الإعداد ما يكفي أن نرفع أصواتنا بذكر لفظ إرهاب الأعداء؟

أضف إلى هذا، أن الإعداد اليوم غيره بالأمس، فإعْدادُنا: وسائلُه، وآلاتُه، ومادتُه، كلُّها بيد أعداء الأمَّة في الحقيقة والواقع، وإن وصفوا أنفسهم بأنهم أصدقاؤنا فبيدهم كل ما تملك الأُمَّة من آلة الحرب، التي دفعت

الأمَّة ثمنها من مالها، الذي لا تملكه إلا بحفظ الأرقام، وكل قطعة سلاح، أو سيارة،أو دبابة، أو طائرة، أو مدفع أو غير ذلك – محصاة بالعدد، والرقم، والنوع، والوصف، فهل يتصوّر عقلاً أن نرهب عدونا بما نملك، وهو (في الحقيقة) ليس ما نملك؟!

وبعد فيا هذا، أحسبك –بعد هذه الفقرات المنقولة من كتابي بنصِّها الحرفي– قد عرفت معنى قولي في صفحة (217): (أفضل الجهاد اليوم هو الإمساك عن الجهاد) وقولي في صفحة (216): (وقد يكون من الإعداد ترك الإعداد) ولا أزيد.

ولعلك قرأت في فصل الجهاد، أني ذكرت الجهاد بأنواعه الثلاثة، الجهاد بالدعوة والعلم، والجهاد بالمال، والجهاد بالسيف، وأنني ذكرت أيضاً، أنه لا يُعدل عن النوع المستطاع إلى سواه إلَّا بالعجز عنه، وأنَّ الجهاد بالعلم والدعوة، والجهاد بالمال، لا تحتاج الأُمَّة فيهما إلى إذن من أمير عامَّة، وإن الجهاد بالسيف يحتوي النوعين الأدنيين.

أليس هذا الفقه للجهاد هو الذي أجمعت عليه الأمَّة يا هذا؟ إذاً فأنا لم أخالف عن إ جماع الأُمَّة فيه، حسيبك الله يا هذا، بل أنت الذي شذذت عنه.

ومن أفظع وأشنع ما همى به ضلالُ قلمك قولك:

(وجعل -أي أنا- المقاتل في سبيل الله في العصر الحاضر متعرضاً لغضب الله وسخطه، يموت منتحراً حيث يقول: أي أنا «هو -أي المقاتل في سبيل الله في العصر الحاضر- آبق إلى إثم، غادٍ إلى عذاب، رائش لنفسه سهماً من غضب الله يجأ به في صدره»).

فأقول: يا هذا، لقد صدقت وكذبت معاً، أو صدقت وضللت معاً، فاختر أيهما شئت، فواحدة منهما كائنةٌ ولا بدَّ. كيف؟

أما أنك صدقت، ففيما نقلت من صفحة (212) وما بعدها، أما أنك كذبت أو ضللت، فذلك يظهر من السطور التي قبل السطر، الذي طاب لك أن تنزعه منها، فانظر العبارة جيداً تعرف منها كذبك أو ضلالك مرة أخرى. اختر ما شئت!

قلتُ: «والجهاد الذي جعله الله من الأسباب التي تجري في فلك قانون المدافعة هو منه، وبه، وفيه. وقانون المدافعة يقضي بأن الجهاد لا بد وأن يكون مأذوناً به من إمام عامَّة، فإن أذن على نحو ما بيَّنا سابقاً، وإلا فهو آثم غادٍ إلى عذاب، رائش لنفسه سهماً من غضب الله يجأ به صدره».

لعلك يا هذا تعرف القاعدة النحوية (أو لا تعرف لا أدري) التي تقول: «إن الضمير يعود إلى أقرب مذكور

ظاهر قبله». فأين أقرب مذكور ظاهر في العبارة السابقة، يعود إليه الضمير: (هو): في قولي فهو آثم غادٍ إلىعذاب... الخ؟ أليس هو (إمام عامة)؟ فمن أين جئت بأن الضمير يعود إلى المقاتل في سبيل الله؟ هل في هذه العبارة ذكر للفظ المقاتل؟ دلَّني عليه بالله عليك!!

أتدري يا هذا من أين أُتيت؟!، ليس من ضلالٍ أو كذب هذه المرة، بل من جهلٍ ولبسٍ من حفظك لقوله عليه السلام: «فهو في نار جهنم يجأ بها صدره خالداً مخلَّداً».

فلما قرأت قولي: «يجأ به صدره» شرد بك حفظك القديم بعيداً، فأوهمك أن المقاتل في سبيل الله اليوم، هو المراد من كلامي، لعلك أدركت يا هذا من هذه الفرية وحدها، ماذا يصنع التسرع وعدم التثبت في صاحبه. فأين أنت وأين أنا؟! فحسيبك الله وحده، ولا أستعدي عليك بدعائي غيره، أما أنت فقد استعديت عليَّ البشر، وربُّ البشر أقوى من البشر مثلي ومثلك يا هذا إلا مثل قول الشاعر:

سارت مغربة وسرت مشرِّقاً!

وممَّا يؤكِّد تسرُّعك وعدم التثبُّت فيك أنك لم تقف عند الفقرة التي تلي فقرة تهمتك هذه التي أقول فيها: «وكما أن تعطيل الجهاد المقدور على أسبابه من إمام عامة مؤذنٌ بفساد حياة الأمَّة، مذهبٌ هيبها، مذلِّها لعدوِّها،

فكذلك أيلولتُه إلى غير إمام عامة ملحقٌ الفساد بالأُمَّة مضعف شوكتها، زائد في فرقتها، لأن لكل أمير شأناً يختلف فيه عن غيره».

ثم قل لي بربك يا هذا أين المصلحة الشرعية التي تحققت، أو تظنها تحققت – أو تظنها ستتحقق في المستقبل من وراء هذا النمط من الجهاد؟ أظن أن حدسك هذه المصلحة قد تحقق في كابل حيث تدور رحى معارك طاحنة بين أصحاب الرايات السبع؟

أظنك نسيت يا هذا دم جميل الرحمن؟ وأنَّ الله عزَّ وجلَّ بالمرصاد لقاتليه!!

ولكي لا تظن يا هذا أو يظن أمثالك ممن يظلمون الناس بغير حق لرد الظلمة فإني لم أُغفل حَظّ من جاهد من غير إذن أمير عامة، فقلتُ: «وإن كنا لا نؤثِّم من طابت سريرته، وصدقت نيَّته فيه، على الرُّغم مما رأينا من نتائج الجهاد، المتعدد الأمراء، الكثير الرايات، المختلف القيادات، ما شابت له منَّا العثانين»، فهل ما أقول وقلت سواء؟!

أما استشهادك بقوله تعالى : ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ﴾، فهو استشهاد مبتور، وإليك ما يقول الإمام أبو جعفر الطبري في تأويلها، يقول: «فجاهد يا محمد أعداء الله من أهل الشرك، به في سبيل الله،

يعني في دينه الذي شرعه لك، وهو الإسلام، وقاتلهم فيه بنفسك، أي :لا يكلفك الله فيما فرض عليك من جهاد عدوه وعدوك، إلَّا ما حمَّلك من ذلك، دون ما حمِّل غيرك منه، أي إنما تتَّبع بما اكتسبته، دون ما اكتسبه غيرك، وإنما عليك ما كُلفته دون ما كُلفه غيرك».

كأنما تقول يا هذا، إن هذه الآية شرعت حكم وجوب الجهاد على الفرد الواحد، لأنه لا يتوقف على أمر إمام عامَّة، وكأنك نسيت قول الله بعد هذا الجزء من الآية وهو: {وحرِّض المؤمنين على القتال}، فهو عليه الصلاة والسلام مأمور بالجهاد، لأنه هو الرأس المفكرة المدبِّرة، وهو بما علم ا لله منه من صدق عزيمة، منصورٌ، يزرع النصر في قلوب المؤمنين بالتحريض بصدق العزيمة الذي أُوتيه، وبذلك تكون الأُمَّة على هذا النحو من فقه هذه الآية مندوبة للجهاد. مستنزلة النصر من ربها عليها، من وراء إمام لها تبايعه، فالآية حجة عليك لا لك، تأمَّل.

ثم إني أظنك يا هذا تعرف القاعدة القائلة: «خطاب الله نبيَّه عليه السلام إن لم يكن خصوصية له، فهو خطاب للأمَّة»، فكل مسلم مخاطب بهذه الآية، والجهاد لا يكون إلا في جماعة، ولا يُخصُّ فرد منها بالتكليف به، وبإمامٍ يأمر بعقد رايته، وحسبك في فقهك هذا يا هذا، أن الجهاد بلا راية واحدةٍ، راحت به أُلوفُ الضحايا، لا زالت تنزف دماؤها على أرض كابل.

ولا أدري لِمَ لَمْ تنتظم في صفوف المقاتلين في أفغانستان، خلال أربعة عشر عاماً، فحسبُ من يرفل في ناعم برديه، وينظر في عطفيه، ويسعى في رغد العافية بين خلَّانه والمفتونين به، أن يُنَظِّر للجهاد والمجاهدين، والسياسة والسياسيين، من مكان بعيد.

أنصح لك يا هذا أن تقرأ فصل الجهاد، وغيره من فصول الكتاب بتأمل وإمعان، فإن وجدتَ فيه غير ما صَخِب به قلمك، وتفطَّر به لسانك –ولسوف تجده إن أردت– ثم إما إن تُعلن على الملأ أنك كنتَ متسرِّعاً، متقحِّماً بسوء نيَّتك شيئاً جهلتَه، وإما أن تكون بيننا مباهلة، تتغشَّى بها عاقبة سوء بإصرارك على باطلك، وإما أن تقول للناس: موعدنا الساعة. إذ يقول الله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ﴾ [سورة الصافات: آية 24]، والله سائلك ولا بد عن تلكم الافتراءات التي جادت بها قريحتك الدعوية، فأعدَّ لها العُدَّة من الآن، وانظر ماذا ستجيب ربك، يوم لا ينفع قلم ولا قرطاس، ولا تلاميذ ولا أعوان، ولا مريدون مفتونون أو غير مفتونين، فارتقب يا هذا، يوم تقوم الساعة، يومئذ لا ينفع نفساً ندامتها لم تكن ندمت وتابت من قبل.

وهل تأذن لي أن أسألك، إن كنت تفقه هذا الفقه من قوله تعالى: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ} [سورة النساء: آية 84] هذا، فلماذا لا تخرج إلى واحد من

الثغور، حاملاً سلاحِك؟ أم أنك مأذون لك بأن تكون مع القواعد ثم ماذا صنعت يا هذا؟ أيها الداعية المجاهد، في موقفٍ مشهود، لا زال يُذْكر بظلاله السوداء.

(الفـريـة_الثانيـة): ومما قلت في مذكرتك: «وكذلك -أسقَطَ -أي أنا- عن المسلمين وجوب التبصر في واقعهم، ومعرفة أحوال الناس في زمانهم، وهو ما يسميه بعض الدعاة اليوم فقه الواقع». ونقلت عبارتين من صفحة (160) وهما، الأولى: «أتركوا فقه الواقع لتفقهوا الواقع». والثانية: «أن من فِقْهِ الواقع أن تدع فقه الواقع ليستحكم عندك فقه الواقع، فتكون من أعلم الناس وأفقههم بفقه الواقع» وأُغضي عن كلامك السيِّء في وصف هذه الجملة.

عجيب والله أمرك يا هذا، والله لكأنما، لا تريد إلاَّ فتنة، تنزع بها إلى أمر لست بملاقيه إلا فيها، وكلما أوضعت في قطعة منها بظلم، آثرت ألاَّ تخرج منها إلا بذنب، تُفرح بها الشيطان وحده، ولا والله يا هذا ما أحسنت -إن أحسنت- إلا لشيطانك، ولا والله ما كانت منك إلا إساءة، لا إليَّ وحدي، بل وإلى من يشدون عضدك، أما إساءتك لي، فلستُ مباليها، فكم هم الذين أناخت بهم رواحلهم الهزيلة، أمامي، موقورةً، إفكاً، وخرافة، وزوراً، وظلماً، وعدواناً وأفرغوها عند قدميّ، فتطايرت وتبعثرت. فالله سبحانه يدافع عن الذين آمنوا،

فإني والله ممن تسرهم الحسنة، وتسيئهم السيئة، والله سبحانه يدافع عن الذين آمنوا[1].

وإني أبرِّؤك من مثل ما تنطوي عليه صدور أولئك من سوء، لكن هل في وسعك أنت أن تبرِّئ نفسك مما قذفتني به من غير حق؟!

كان الله في عون قلمك من سوء ما أمليت عليه، ولا كان في عونك أنت من سوء ما أملى عليك!

وبنيت على العبارتين اللتين نقلتهما من صفحة (160) حكماً قلت فيه: «فأبطل -أي أنا- فرضاً من فروض الكفايات على علماء الأمة، وهي أن يكون فيها من يبصر بواقعها، وكيفية معالجة أزماتها ومشكلاتها وانحرافاتها على ضوء الكتاب والسُّنَّة».

فيا هذا، لقد والله جانبت الصدق، وأخطأك الصواب في هذا الذي قلت، وقد كان عليك أن تقول: «على ضوء الكتاب والسُّنَّة ومنهج السلف الصالح»، وهل من منهج السَّلف الصالح يا هذا الذين تدعي أنك تنتسب إليهم، أن تسبّ الناس عدواً بغير علم، وأن تنحلهم كذباً وظلماً ما لم يقولوا، ولم يخطر لهم ببال؟!

إن كنت حاسباً نفسك أنك واحد من أولئك الذين من

---

[1] () وإني لأحمد الله أنَّ الصبر -على من يرفعون عقائرهم بنصر الدعوة السَّلفية- صار رداءً جميلاً لي!!!

حقِّ الأمَّة عليهم أن يبصِّروها بواقعها، فيا ضيعة هذه الأمَّة، إذ لم تر فيك –بما صنعت– إلا واحداً من غمارها، ليس من حقِّهم إلا أن يصيخوا السمع لما يلقى إليهم إن أحسنوا وحسبهم ذلك!!

يا هذا انظر ماذا كتبت في صفحة (152) وتأمّله جيداً: قلتُ: «ومما يستوجب الشكر لله علينا، أننا –والحمد لله– كنا ولا زلنا، نعتقد أن الإيغال في نظرية فقه الواقع على ما صارت إليه –عند طوائف المثقفين المسلمين، مضيعة للوقت، مذهبة للجهد، مأكلة للفائدة المرتجاة من العلم، ويكفي من فقه الواقع ما يبصِّرُ بالحاجات والضرورات والحوادث، التي تفرضها الحياة، بأسبابها ودواعيها على الأمة، إذ ليس يحسن بالدعاة العلماءِ أن يصمُّوا آذانهم عن سماع ما يلقى إليهم من سؤالات، يستنبىءُ بها السائلون عما يدور حول هذه الحاجات، والضرورات والحوادث، وفيما يحيط بها، ويتصل بحركتها، وأسباب نشوئها، والغايات التي أحدثت أو كانت من أجلها حياة الناس. كي يكون جواب كل واقعة لحاجةٍ، أو لضرورة، أو لحادثة، مؤسساً على النظر العقلي، المسدَّد بالدليل الشرعي الذي لا يخطىء، إما بقياس جليٍّ، وإما بعموم استدلالٍ، وأما بنصٍّ يطابق الواقع المشابه لها حين وقوعها، وطروِّها أوَّلاً».

أسألك الله يا هذا هل من يكتب هذا يلغي فريضة من

فرائض الكفايات؟!

إن كنت لم تقرأها وأصدرت حكمك الذي أصدرت فتلك مصيبة، وإن كنت قرأتها وحكمت، فالمصيبة أعظم.

ولو أنَّك أخذت من هذه الفقرة عبارة واحدة لما زلَّت بك قدمك. وهي: إذ ليس يحسن بالدعاة العلماءِ أن يصمَّوا آذانهم عن سماع ما يلقى إليهم من سؤالات، يستنبىء بها السائلون عما يدور حول هذه الحاجات والضرورات، والحوادث الخ» ففقه الواقع أو التبصر بالواقع على حدِّ تعبيرك حقٌ للأُمَّة على علمائها، وهذا ما أقوله، أيُّها الفقيه الداعية المبجَّل، ولو أنك قرأت قولي: «الجواب المؤسس على النظر العقلي المسدد بالدليل الشرعي، الذي لا يخطىء» لما فعلتَ فعلتك التي فَعلت يا هذا.

ومثلها أيضاً قولي في صفحة (161): «فكيف إن اجتمع إلى هذا النظر العقلي. الفقه البصير بطبيعة تلك النواميس والسُّنن، ثم ما يكون من حرص صاحب هذا الفقه على وزن الأحداث الجارية في آفاق الحياة الإنسانية وواقعها وفق هذه النواميس»؟

ومثلها أيضاً قولي: «فيجب على الداعية المسلم أن يكون على معرفة دقيقة يلمُّ بها بكل ما يدور فوق الأرض، والداعية المسلم ليس في حاجة إلى الاستزادة من

المعرفة بعيداً عن دائرة الوحي، ففي كتاب الله وسنَّة نبيه صلى الله عليه وسلم الغناء كل الغناء عن كل ما سواهما من المعرفة وأسبابها، وحين يتجرد الداعية المسلم بصدق ولائه للدعوة، وبإخلاص نيته للعمل بها، يزداد معرفة وفقهاً بالواقع، ويشتد حرصه على معرفة الأخبار والآثار التي نزل بها الوحي، فيكون فقه بالواقع، بقدر ما ينتهي إليه علمه من تلك الآثار والأخبار».

ولعلي لو استوفيت الفصل كاملاً في هذا المقال ما أصابت القناعة من نفسك بخطأ أنت واقعته إن كنت مصراً على أن تمضي في خطئك، وأذكرك بالمقالة التي أُثِرَت عن عمر رضي الله عنه: الرجوع عن الباطل خير من التمادي فيه، أو الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، ووالله يا هذا لئن لم ترجع عما قلت فأنت مبطل ظالم. وحسيبك الله.

(الفرية الثالثة): وفرية أُخرى ياهذا ألصقتها بي وبكتابي إذ تقول: «وكذلك أبطل المؤلف ما سمَّاه بالعمل السياسي الإسلامي على إطلاقه، وأمر بوجوب ترك الحكام على اختلاف مناهجهم وما يريدون، وعدم منازعتهم في شيء، وعدم مشاركتهم في أمر وقال: أي أنا بالحرف الواحد، «أحسب أن مقولة: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله كلمة حكيمة تصلح لزماننا» وقال أيضاً: –أي أنا– «العمل السياسي في عصرنا ونحن نعده من

المحظورات الشرعية، يفرض على العلماء والدعاة التحذير منه».

يا هذا، مسلكك في التقاط الكلمات في مذكرتك من كتابي واحد، «فويل للمصلين» «لا تقربوا الصلاة»، فهلاَّ قرأت ما قبل هذه الكلمة وما بعدها، فتخلص إلى حكم غير الحكم الذي رفعت به عقيرتك؟!

ما هكذا يكون الداعية، ولا طالب العلم، أن يوغل في ضلال خطئه من غير ورع ولا فقه، ولا دليل مبين!! بل ولا ينبغي أن يكون!!

قلتُ: «وإذا كان لنا أن نجتهد في هذا الأمر– ونحن لا ندعي صواب اجتهادنا– وبعد عرضنا السلوك السياسي عرضاً وافينا به أموراً لا تقع إلا في دائرة المحظورات، فإننا نرى أن العمل السياسي للمسلم، لا ينبغي أن يجاوز دائرة التصور النظري المحض، فإن جاوزه فإلى التعبير عنه بالكلمة الواعية، التي تصور كل ما يتصل بالسلوك السياسي، تصويراً واقعياً، ينبيء عن صدق التصور، ويضع الإنسان المسلم أمام حقائق مسلمة، تفضي به إلى النجاة بفكره وعقيدته، ودينه وبدنه، ويبعده عن مهاب الفتن، وتياراتها الجامحة، التي أحاطت بأرضنا من كل جهاتها، وملأت آفاقنا كلها، وما كاد ينجو منها إلا كل ذي لب رشيد، والناجي يرجى بنجاته نجاة آخرين».

واجتهادنا في هذا الأمر –ونرجو أن يكون صالحاً– فيه خير ورشد إن شاء الله– نرتبه في المسائل الآتية:

1– العمل السياسي الإسلامي جزءٌ من النظام الإسلامي العام، لا يجوز إغفاله، ولا إسقاطه من حساب العمل الإسلامي.

2– العمل السياسي في عصرنا –ونحن نعدُّه من المحظورات الشرعية– يفرض على العلماء والدعاة، التحذير منه، لما بيَّنا من قبل، وعليه، فإن تركه للقائمين عليه أولى من أن ينافسهم فيه غيرهم وخشية من أن يضارُّوا به، والتحذير منه بدءاً يجنب العاملين الإسلاميين كثيراً من الأخطاء التي ألمَّ بها الذين خالطوا العمل السياسي في أحيانٍ متفرِّقةٍ، وغرقوا في لجته، وأغرقوا معهم غيرهم.

3– التحذير من العمل السياسي ليس تحذيراً مجرَّداً، بل يجب التحذير مع بيان المحاذير الشرعية التي تخالط العمل السياسي، والمحظورات التي تأسس عليها، وشيد هيكله من أجل ديمومته، وطول بقائه، ومن أوضح الواضحات في هذه المحظورات أنه بمجموعه مصادم لأصول العقيدة– وفروع الشريعة.

4– العمل السياسي جزءٌ لا يتجزأ من عملية واسعة ضخمة، إذا نجحت الأمَّة في تحقيقها لا يلبث العمل

السياسي أن يصبح همّاً سهلاً من همومها (**تأمَّل هذه العبارة جيداً يا هذا**) وما لم تنجح الأمَّة في تحقيقها فسيبقى العمل السياسي في أدنى درجات الاهتمام، رغم الدعاوى العريضة التي تطلقها حناجر السياسيين والمحترفين، والصاعدين الجدد في سلَّمها، والمؤمنين بسلبياتها الكثيرة، وإيجابياتها القليلة، ومن شاء فلينظر ليبصر الواقع.

هذه العملية تقوم على تنقية العقيدة وتصفيتها، وتنشئتهم على أساس من الأحكام الشرعية، والآداب الإسلامية، وفق ما ورثناه عن القرون الثلاثة المفضلة الأولى.

يا هذا... هل من الإنصاف أن تقتطع كلمة دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وتغمض عينيك عن كل هذه الفقرات والجمل، التي تجعلها ذاهبةً لا معنى لها ولا مفهوم للفظها، كما تقول العرب: (تربت يداك) و (لا أُمَّ لك) و (ثكلتك أُمُّك) وغير ذلك مما درج على لسان العرب، ونُسيَ معناه الأول، كان خيراً لك يا هذا أن تعلِّم مريديك العربية، لا أن تعلِّمهم الطعن والتطاول والاستطالة في حمى أعراض المسلمين، ثم تحذرهم –ربما– من قراءة كتابي.

هل تعرف هذا يا هذا ؟ إن كنت لا تعرفه، وألقيت به على مريديك واتباعك ليتعلموا به، ومنك، كيف يطعنون

على إخوانهم، وكيف يلبِّسون عليهم، وكيف لا يرعون فيهم إلاًّ ولا ذمَة، أو لعلك سننت لهم سنَّة رأيتهاحسنة، فطاروا بها فرحاً لأنها من شيخهم ومُرَبِّيهم، يا الله إن لك في كل شيء مما خلقت وقدرت حكمة.

ويا هذا. اقتطعت من صفحة (197) قولي: «لكن هذا لا يعني تحقيق موعود الله سبحانه لها».

ثم اقتطعت عبارة أخرى بعد أربعة أسطر من الصفحة نفسها، وضممتها إليها وأوهمت أنها متممة لها، وهي: «فقيام مثل هذا الحكم لا يغير من واقع الأُمَّة شيئاً يذكر».

لماذا أغفلت يا هذا أربعة أسطر كاملة؟ هل هذا من أمانة العلم، وخلق الإسلام أن توهم القارىء أو السامع ما يوقعه في عرض مسلم ظنّاً أو كلاماً؟

لقد كان حريّاً بك يا هذا أن تسوق الفقرة كاملة. وإليك الجزء الذي أغفلته.

قلتُ: «وما لم تتحقق وحدة الأمَّة على كلمة سواءٍ بينها، بالتوحيد الحق، والحكم الواحد، الذي لا يختلف عليه، ولا فيه، ولم تَزُلْ الهنات –من بين أفراد الفرقة الناجية– الناشئة من الجهل، واستصغار الشأنِ، والطمع، فقيام مثل هذا الحكم لا يغيِّر من واقع الأمَّة شيئاً».

ثم قلتُ: «وبهذا يظهر جلياً للذين يأخذون على

السَّلفيين عدم اشتغالهم بالعمل السياسي، لماذا يكره السَّلفيون هذا العمل. فالبون شاسع بينهم وبين الدائبين السعي في العمل السياسي شاسع جداً»[1].

يا هذا. ألم يكن من أمانة العلم، وخلق الإسلام أن تورد كلامي هذا كلَّه؟ لئلا يتوهم الناس صدق ما تقول، ويكون منهم نصفةٌ لم تُرِدها أنت لي يا هذا؟

ألا حسيبك الله وحده.

ويزيد ما سقتُه أنا من كلامي وضوحاً قولي في صفحة (179-180): «وإن كان لا بدَّ من مخالطة العمل السياسي، فالبقدر الذي تفرضه الضرورة، إذ الضرورات تبيح المحظورات، والضرورة تقدر بقدرها، ولا يجوز مجاوزتها بأكثر منها، والأمَّة كلها على مثل هذا، ولا نقول -أي حينئذٍ- دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، ولكن نقول: بأن لكل أجلٍ كتاباً، والأمور مرهونة بأوقاتها، ومن تعجَّل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه، ومن أحسن البدء في أمره أصاب نجحاً في دَبْرِه».

فهل مثل هذا القول يقوم دليلاً لك يا هذا على الطعن عليَّ بسوقي عبارة دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله؟!

ولعلَّ قائلاً يقول، أو لعلَّ معترضاً يعترض، وهل هذه

---

[1] () أسأل الله أن يسلِّمنا من سوء الفهم، وفساد الرأي، وشرود الحكمة!

قواعد شرعية، حتى لا يعدل الإنسان عنها بالتعامل مع السلوك السياسي؟

فأقول جواباً على ذلك: إن هذا هو الطريق الآمن الذي يقرأ فيه المسلم العاقل البصير النهاية المأمولة من قوله تعالى: {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى الله إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [سورة التوبة: آية 32].

وما أصاب المسلمون من هذا الوعد الإلهي إلا أقله، أما هو فآت لا ريب فيه، يشهد لذلك الحديث الذي أخرجه مسلم وغيره: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزَّى، فقالت عائشة: يا رسول، إن كنت لأظن حين أنزل الله، {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} إن ذلك تامٌّ، قال أنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحاً طيِّبة، فتوفَّى كلّ من كان في قلبه حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم».

كان حرياً بك يا هذا أن تقرأ هذه الجمل من صفحة (179)، وما بعدها، لتعرف ما تعني: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، الذي أتَّمتني به.

لقد أزاغك عن الحق والله تسرُّعك يا هذا، وواقعت إثماً أشاقك له الإعجابُ بالنفس، وتخطفَّك عن الصواب غمطُك إياىَّ بسوء الظن. لماذا هذا يا هذا؟! ألأني على

المنهج الذي تدَّعي أنك عليه؟ إذاً، فماذا أبقيت للأعداء الألِدَّاء؟

ومثل الذي حكمت به عليَّ بإيرادي: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، كان حكمك أيضاً إذ قلتُ: «أفضل الجهاد اليوم هو الإمساك عن الجهاد»، مرة أخرى أذكرك بـ: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ} و {لاَتَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ}.

(الفرية الرابعة): وكان مما قلتَ يا هذا: هذا إلى خلطه، وتخبيطه في أمور كثيرة من أمور العقيدة، كادعائه أنَّ أمَّة الإسلام اليوم :لا تملك من أمرها شيئاً، حيث يقول -أي أنا- بالنَّص: «إن مقاليد الأمَّة ومقاليدها صارت ألى أيدي أعدائها، ولا تملك لنفسها معهم نفعاً ولا ضراً».

ووالله يا هذا، أني لأرجو الله صادقاً أن أكون مخطئاً في قولي هذا، لكن هات برهانك إن كنت تملك أنت من الأمر الذي أعنيه بقولي :لا تملك من أمرها شيئاً.

نعم: أنك تملك ويملك كل أفراد الأمَّة أن يأكلوا، ويشربوا، ويلبسوا، ويتزوجوا ويشيدوا القصور والبيوت، ويقتنوا الأثاث والرياش والسيارات، ويمشوا في الأسواق ويرفع البعض منهم أصواتهم فوق أعواد المنابر، بالسبّ والشتم، واتهام نوايا العباد، والحكم على ما في سرائر

الصدور[1]. وحتى هذا الذي تملك يا هذا أن تصنعه لا يكون إلا بقدر مأذون فيه، أحسبك معي في هذا. وإلا فمن أنت؟ وأين أنت؟ وكيف أنت من فقه الواقع؟!

ولعلَّ مما يعجبك يا هذا، وتطرب له كثيراً، وترى أنَّ الإسلام حقق به نجحاً ظاهراً في بلاد الغرب، حين تذكر في نفسك أن الحركة الإسلامية تنمو في تلك البلاد، وتمتد فروعها، وتجد –على حدِّ تعبير القابعين في تلك البلاد– حُرِّية لا تجدها في بلاد المسلمين أنفسهم، وهذا يعني أن الحركة الإسلامية –على حدِّ تعبير فلاسفة تلك الحركة– تحميها الأنظمة التي تحمي حرية الشعوب القاطنة في تلك البلاد.

ولعلك تذكر جيداً يا هذا ويذكر معي ملايين المسلمين، البلايا والطامات التي تمعن أنظمة الحكم في أوروبا وأمريكا في إنزالها بالشعوب الإسلامية في كل أرجاء الأرض.

فهل تصدق يا هذا. أن الحركة الإسلامية في بلاد الغرب –تحمى باسم الحرية، والمسلمون في كل أقطار الأرض يسامون باسم الحرية نفسها على يديها أو بها

---

[1] () ولعل الحذَقة المهرة في هذا الباب، من لا ظل في حقيقةٍ لدعواه أنه: (على منهج الكتاب والسُّـنَّة)، فيقول قائلهم: هذا خبيث، هذا مقنِّع أفَّاكٌ، هذا يُظْهر ما لا يُبْطن، إلى غير ذلك مما يشبهها.

سوء العذاب؟

تأمَّل جيِّداً يا هذا ما أعني..

ثم وأنت مؤلف في العقيدة وغيرها، هل من صواب العقل أن تقول: «هذا إلى خلطه وتخبيطه في أمور كثيرة من أمور العقيدة، لعلك قضيت عليَّ بهذا الحكم الجائر الفاسد من قولي: ولا تملك لنفسها -أي الأمَّة- معهم نفعاً ولا ضراً».

إن كنت قضيت عليَّ بحكمك الجائر بقولي هذا، فأذكرك بـ: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ} و{لَاتَقْرَبُواْ الصَّلَاةَ}، فوالله الذي جعل لك عينين، ولساناً وشفتين ما هديت إلى سلامة النجدين.

وأناشدك الله يا هذا هل فهمت قولي الذي نقلته من صفحة (179)، وهو: «ذلكم أن الانفصام السياسي بين الدين والدولة صار أمراً مقضياً لا مردَّ له... الخ». لتحكم به أنني أقول بكفر جميع الحكام، حسيبك الله يا هذا، والله ما أنصفت ولا أصبت، بل ظلمت وأخطأت.

لو أنك قرأت فصل: التكفير وقواعده من صفحة (127) وحتى صفحة (146)، جيداً وفهمت ما قرأت لما قلت قولتك الآفكة هذه.

قلت في صفحة (132): وبناء على ذلك فيما تقدم، فإن أحداً من السَّلفيين لم يجروء على تكفير أحدٍ من

الأُمَّة تكفيراً إعتقادياً إلَّا بصريح ما يكفِّر، وليس يحتمل تأويلاً صارفاً، يحمي الموصوف، بوصف الكفر أو الظلم، أو الفسق من الكفر البواح (وأشيرُ بهذه الأوصاف الثلاثة إلى آيات سورة المائدة) ذلكم أن تكفير المسلم الذي ينطق بالشهادتين ليس بالأمرالسهل، لأنه إن سلم المكفّر من الكفر البواح لسقوط الدليل المسْتَدلِّ به على كفره. فإن المكفِّر –بكسر الفاء– سيبوءُ هو بالكفر، لقوله صلى الله عليه وسلم: «أيُّما رجلٍ قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما».

ومن هنا كان حقاً على العالم أن يتحرَّى أشد التحري، وأن يستبين الأمر من كل جوانبه، فإن وجد ما يسعه بصرف الكفر، بما يكفر ظاهراً، وإلا قال –حين لا يجد بداً من القول بكفر هذا أو ذاك. وليس يجد ما يعنيه بالتأويل القريب أو البعيد على صرف الوصف بالكفر، عمّن ثبت له بأنه كافر بقول أو بفعل، ولا يكفي في ذلك صريح اللفظ، إلا أن يكون اللفظ غير محتمل إلَّا لما صرَّح به ظاهر اللفظ.

وهل الحكام يا هذا إلَّا من أفراد الأمَّة، فهل هذا الكلام يستثني الحكام أم أنهم داخلون بهذا الحكم الذي حكمتُ به أنا في أفراد الأمَّة؟ اتق الله يا هذا.

ولا بأس أن تقرأ أيضاً ما قلته في الحكام بذواتهم، قلت: وهل من لا يحكم بما أنزل الله، وهو موقن بقلبه أن

ما أنزل الله مما لا يحكم هو به لأمر ما، هو خير وأفضل مما يحكم به من غير ما أنزل الله –بل لا سبيل إلى المفاضلة– يستوي هو ومن كان على مثل ما وصف الله به أهل الكتاب، الذين قضى الله سبحانه بكفرهم لجحودهم وإنكارهم بأقلَّ تفكير، ترفض المساواة بين الإثنين[1].

ألا حسيبك الله يا هذا، لا أدري ما علاقة تلك الجملة التي اقتطعتها من فصل كامل وهي: ذلكم أن الانفصام السياسي... الخ، بحكمك عليَّ بها «إني أكفِّر جميع الحكام، ولذا فإني لا أرى إباحة العمل السياسي»، كيف فهمت هذا يا هذا؟!.

إن واحداً ينظِّر للمئات بل للألوف من الشباب المسلم، عيْبٌ منه أن يكون مثل هذا الحكم، بتلك الأدلة، والمقتطفات المبتسرة. ولولا أنني لا زلت أحسن الظنّ بك، لقلت لك: إنك تقصد لكلامك أو قل بحملك إلى إذايتي!!! إي والله إذايتي، وإلا فما معنى قولك أني لا أرى مشروعية العمل السياسي لأن جميع الحكام كفارٌ؟! ألست تعرف سبب نزول قوله تعالى : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ

---

[1] ( ) وموضوع التكفير برُمَّته يحتاج مني إلى زيادة بيان وإيضاح، واتيان عليه من كل جوانبه، لذا فإنِّي رأيت أن أرفعه من الكتاب بالكلية، لأجعله في رسالة خاصة؛ إن شاء الله، ألحقها بالكتاب مستقبلاً

شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} [سورة آل عمران: آية 128]؟

إن كنت لا تعرف، فعد إلى أي كتاب من كتب التفسير، لتعلم أن الرسول عليه السلام، لا يعلم شيئاً من الغيب إلا بإعلام الله له، وإلا لما كان له أن يدعو على من كان في علم الله أنه سيؤمن، ويحسن إيمانه؟

(الفرية الخامسة): وأخيراً تأتي الطامَّة الكبرى في مذكرتك يا هذا حيث تقول: «هذا إلى أمور منكرة عظيمة، جعلت ما صوَّره من السَّلفية قاديانية جديدة، أو صوفية مستحدثة، لبست لباس السَّلفية زوراً وبهتاناً، أو ثعلبيةً ماكرة، أو بيعاً للدين بالدنيا، أو وقوعاً في فتنة عمياء».

حسيبك الله يا هذا، وَغَداً تموت، ثم تبعث ثم تقف بين يدي الله للحساب، فماذا ستجيب ربك وهو ولا بدَّ سائلك في هذا (الإصدارات الثورية الدينية التجديدية)، هل ستقول له: «أنا لم أقطع بما قلت، بل سقت هذه الأوصاف متعاطفة بحرف العطف (أو)، وتركت لصاحب كتاب هي السَّلفيَّة أن يتخيَّر منها ما شاء»، أم تقول له أني كنت متسرِّعاً، أم تقول له أني سرت من وراءِ شيطاني يهديني سبيل الضلال؟

أسألك الله يا هذا ألا دللتني على موضع واحد في كتابي يصدقك في جزءٍ صغيرٍ من فرية طابت لك بقبحها،

وحلت لك بعلقمها.

أتعلم يا هذا أنك كأنما بسطت صفحة قلبي بين يديك، ورأيت هذه الأوصاف كلَّها مرموقة عليها، وتتبعتها من بعد لتجدَ من ورائها نيَّة أسفرت لك عن وجهها، وتحدثت لك بلسانها، وأسمعتك هذه الأوصاف.

لكأنما وأنت تضع هذه الصفات لأختار منها ما أشاء لنفسي، قد عرفت ما اختص الله نفسه بعلمه! لن أعجل إليك بهذه التهمة، كما عجلت أنت إليَّ بتهمتك الظالمة السوداء –بحسن نية أو بسوئها– إذ المسلم مأمور أن يكون حسن الظن بإخوانه المسلمين، وأن لا يكون قاسطاً مع الكفرة والمشركين، كما أمر الله، ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [سورة المائدة: آية 8].

تُب إلى الله، فوالله لقد أبليتَ مع الشيطان بلاءً حسناً في كل ما كتبت في مذكرتك ومقالك، وأمعنت فيَّ بظلم وبهتٍ وسوء ظن، بلا خوف من الله، ولا تقدير لسوء عاقبة.

ولا أدعو عليك فأقول: أنضل الله بنانك. وفَسَل قلمك، وبيَّض مدادك. ولكن أسأله سبحانه أن يجزيك بفضله إن أحسنت وأصبت فيما كتبت، وأن يكافِئَك بعدله إن أسأت وظلمت فيما كتبت، ولا أحيلك في ذلك إلا إليك، ولا أكِلُك في سريرتك إلا إلى علمك، وموعدنا الساعة يا هذا، والله

يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الملحق الثاني

رسالة ناصِحَـة غيـر ناضحـة

وددت أنِّي أكون قد حبستُ هذه الرسالة، وأضمرتها في صدري، وضممتها إلى سائر ما أكتبه وأُخفيه عن النَّاس –ولربَّما نسيته– للقادمات من الأيَّام، احتساباً لله، وكفكفةً لظلمٍ يواقعه صاحبنا مرَّة أُخرى، أو يحدِّث به نفسه، من إملاءِ أبي مُرَّة!! عليه اللَّعائن –وإن كنتُ على ثَبجِ حقٍّ أبلجَ لا يُدافع إلا إن أجاءَ إليه جهلٌ، أو هوىً، أو ارتيابٌ، تَخِذَ منها صاحبُها ذريعةً، يستبق بها من أوحى به إليه، في حطِّ أذىً على كاهل من نُكبَ بأن عَلِم فيه من قبلُ خيراً، حتى إذا لمعت بارقةٌ من فتنةٍ داجيةٍ، نفث فيها من روعه، فصارت فتناً تُؤَجّجها أرواحٌ ما زكت إلا بارتياب!! –ولا طهُرت إلا بهور، ولا نَقِيتْ إلا بجهلٍ! فانظر –بربِّك كيف يكونُ أمرُ أمَّةٍ، هذه الأرواح تطَّاير بطُهرٍ من هوىً، ونقاءٍ من جهلٍ، وزكاةٍ من ارتياب؟– لولا ما بلغني أنَّ الرجل لم يجد من نفسه وازعَ تقوى يكفُّه، ولا فضلَ علم يردعه، ولا وفاءَ لِقدامةِ عهدٍ وصُحبةٍ يصُدُّه، فأتبع ميناً ميناً، ووصَلَ إفكاً بإفكٍ، وأربى بهتاً على بهتٍ.

ولا أدري كيف يفكّر صاحبنا هذا حين يصنع ذلك كلّه،

وهو -ولا بدَّ- يحفظ قول النَّبي الأكرم صلوات الله وسلامه عليه: «إنَّ الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته».

لكنَّ عذره -المسكين- أنَّه يجد من زُمْرةٍ- أصاب بينها حظَّاً من السُّمعة -مظاهرةً، يَزيد من عَدْوه وغروره، وتنسيه هذا الحديث الذي يحفظ، فتذْهب به نَفْسُه مذاهبَ العَطَبِ والإعنات، فلا هو صَدَق بسوءِ ظنِّه، ولا هو صدق بسوءِ فهمه، ولا هو صدق بسوءِ نظره من عاقبة أمره، فقد -والله- احتلب حوبةً عَزَّت على من قال الله فيهم : {قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ}.

ولا أدري إن كان صاحبُنا أتاه نبأ أبي سفيان حين وفَدَ على عظيم الروم، وجعل يسأله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يُسعفه لسانه -وهو العدوُّ الجاهليُّ المستكبرُ الباغضُ رَسول الله صلى الله عليه وسلم- بكلمةٍ واحدةٍ يطعنُ بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، مخافة أن تُكتب عليه كِذبةً، تشيعُ عنه في العرب، فهلا وسعك يا صاحبنا -الداعية الأمثل! والمنظِّر الأفخم! والكاتب الأرفع! -وأنت تدعو- كما تدَّعي- إلى الله على بصيرةٍ -ما وسع أبا سفيان، حين كان على دين آبائه وأجداده مخافة أن تُكتب عليه كِذْبة؟

لو فقهت يا صاحِبنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّما بعثت لأتمِّم صالحَ الأخلاق»، لتمنَّيت أن

تكون مطويَّاً تحت جناح أبي سفيان رضي الله عنه قبل أن يُسْلم، لعلها كانت تدركك ندامةٌ تنفعك في النَّاس، لو قضى أبو سفيان قبل أن ينال شرف صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم!!

فلماذا كلَّ هذا يا صاحبنا الذي تصنع، وأنت تُعَدُّ، أو تَعُدُّ نفسك مثلاً يُحتذى في النَّاس، في زمانٍ تصَّاعدَ فيه دخان الإرجاء العلماني، واصطخبت فيه كوارِهُ الأحوال، وجاشت فيه صدورُ حواضنِ الآثام؟! أما كان حقَّاً لنا عليك –وهو أدنى حقوق المسلم على أخ مسلم له لا يعرفه. فكيف بمن يعرفه؟ –أن تكون منك ندامةٌ تجزُّ بها ما فرَّطت في جنبِ واحدٍ من إخوانك المسلمين، وتُبدي له بها صفاءَ ودٍّ، لم يكن منه بينكما قِدْماً إلا تواصلٌ موكوءٌ على برورٍ، يزكو بأنفاس القرون الأولى، كان واجباً على كلِّ واحدٍ منكما أن يزداد عليه حرصاً، وأن يتفقَّده صباح مساءَ، فإن وجده سالماً حمد الله عليه، وأكفأ عليه قلبه، وإن وجده على غير ذلك ادَّارَكَ ما قد يكون انتابه من فسادٍ، فيُقْصي عنه الأسبابَ المُنشِأةَ ذلك الفساد، حتى لا تكون من حجةٍ ظاهرةٍ عليه، تَثْني عُنقّه بلائمةٍ، فلمَ لم يكن منك هذا يا هذا؟ هل كان خَسارٌ سيلحقُك لو شربتَ من كأس النَّدامة على أمرٍ أوكأتْ شَنَّهُ يداك!! أم كان تطامُنَّ منك سينتقصُ من غرورٍ وكبرٍ، أرقدهما فيك شيطانُك، بما سيقول عنك مُريدوك المخلصون، حين يبدو

لهم عَوار ما رصفَ قلمك على صفحاتِ (الفرقان)!!! أو انفلت من لسانك في ذلك الذي سمَّيته ميناً (حوار مع الألباني)!!! لم تستطع فيه إلا أن تكون نادماً أنَّك لم تكتب، أو لم تقل من قبل كلَّ ما تريد عني!!! فاستخرجْتَه من صدرك، في غير ورع، ناسياً وثيقتك التي دبَّجَتها يراعتك يوماً مع نفر قادتهم قدماك إلى شر صنيع، وأرسلتهم بها مجتمعين إلى بغداد، كأنَّما هي بيعة تمشي في النَّاس على استحياء أو وجل؟!!!

يا هذا: ويكأنِّي برأسك –من سهم ظلم أبيت إلا أن تُفَوِّقَه إلى سريرتي وديني– مردوخةٌ به!! إمَّا في الدُّنيا وإمَّا في الآخرة، وأرجو أن تكون الأُولى، فعذابُ الدنيا أهون من عذاب الآخرة، ولسنا ممَّن يحبون لإخوانهم المسلمين أن يعذَّبوا في النَّار، ولا والله أن ينالهم سوءٌ في أدنى من ذلك بكثير، ولكن: {وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [سورة البقرة: آية 74].

وأرجو أن تكون قد عرفتَ أنَّك ظالم، فلا يشق عيك أن تثوب إلى رشدك، وتؤوب إلى ورائك، لتبصر كم كنت ظالماً بما أسلفت من إمعانٍ في إذاية مؤمن، أصررت عليها ابتداءً، من غير مظلمة لك عنده، تثأر منه بإذايتك إيَّاه، وكأني بك على ذُكرٍ –أو هكذا أظن– من قوله تعالى : {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُواْ فَقَدِ احْتَمَلُواْ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً}

[سورة الأحزاب: آية 58].

وهل تعلم أيهذا الرجل أنَّ إذايتك جاوزت العبد الضعيف (أنا)، وامتدت سحُبها السوداءُ إلى خارج الأرض التي أنت فيها، حاملة في أجوافها هطلاً، اسَّاقط متسعِّراً على ألسنة من يحسب أنَّك تَصْدُقُ النَّاس في كلِّ ما تقول، ويكفون عقولهم همَّ قراءة كتاب قلت فيه قولاً، غير راعين إلاَّ ولا ذمَّة في أعراض إخوانٍ لهم، اتباعاً لشيخهم، واقتداءً بإمامهم، وتأسِّياً بمربّيهم على منهاج الكتاب والسُّـنَّة(!!!) وفيهم السلف الصالح (!!!) وأخلاق القرون الثلاثة المفضلة (!!!) إي والله، هكذا يقول هؤلاء فيك أو يعتقدون!.

ويلك يا هذا أين أنت من ذنب، أدنى بهتٍ فيه، لا تطيقه العصبةُ من الرجال الإشداء، فكيف به ضالعةٌ أبعاضه كلُّها إلى خرصٍ مطبوعٍ في صدرك، التحف الويلَ، وافترش الغيَّ، ورهُفَ بغرورٍ وَهَنَ بنسيان الآخرة!! فدُحَ ثِقلُه بأوزارٍ مَنَنْتَ بها على نفسك إذ أودعتها –بسرور ورياء– صدور الكثيرين، فكنت بها إمامهم، غدوا –منها وبها– في لجَّة تعوي بأعاصيرَ مكروبةٍ من فوت خيرٍ كان، ثمَّ إذا ما تثنَّت أمامهم الدُّنيا بقدِّها المحترق، وأطمارها البالية، طربوا، فصفقوا لها ورقصوا على أنغام تثنِّي قدِّها المحترق[1].

---

[1] () ولكأنما صار الذي وقع فيه صاحبنا هذا، هو المنهج الذي يسير

ويلك! ماذا ستقول لربِّك، وقد أنِسْت بوحشة المعصية، وآثرت أن ترضى بالآثَرةِ العمياءِ، وصرت بها طريدَ الطاعة، لا تغضي منها على استحياء، وترى فضلاً عليها في نفسك لزيف الكبرياء، ومضيت على وجهك لا تلوي على ندامةٍ، تقطع بها على شيطانك استرساله في تسويله لك ما لا يجمل ولا يحسن إلا في عين من يكون وادَّاً له، رائياً في هواه رَجاه، وفي تَسْويله مُناه!

فإلى متى، وأنت أنت وقد أقلعتَ عن شيء من عبودية اسمك لربِّك، أنِفت نَفْسُك الأمَّارة عن أمرٍ فيه طاعةٌ ترجو بها رحمته، وتؤمِّنك من فزع الهول الأكبر؟! ألا ما أضيعك يا هذا، وما أضلَّ سعيَك، وما أسْعَدَ الشيطان بك!!

ونقول مثل ذلك لأضرابك ممن قرضت جلودم الأطماع الزائفة في الشام ومصر وفي كل بلد تكوَّرت بين ظهراني السَّلفيين شوائب الأهواء والكِبْر المقيت.

لا زلتُ –والله– أرجو أن تعلنَ توبتك على النَّاس وأن تُعيدَ قراءتَك كتابي: (هي السَّلفيَّة)، لعلَّ الله يفتح عليك،

فيه وعليه كثير من أدعياء السَّلفية اليوم، القابعين من وراء جلودهم الغليظة المسمنة بكسب المحابر والورق، وهذا أمرٌ لم يعد خافياً حتى على الأطفال والسُّذج.

وتفهمه فهماً حسناً، كما يفهم أهل اللسان العربي عربيَّتهم!!

وأُذكِّرك أيهذا الرجل، أنه لا يجمل بواحدٍ مثلك -يُحْسَبُ على العلم والعلماء- أن يَخْفى عليه شيءٌ من جمال العربية في ألفاظها، وتراكيبها، ودلالات حروفها وكلماتها، وإلا فليصمت امتثالاً لقوله عليه الصلاة والسلام: «من كان يؤْمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»!!

وكان حسبك من إثم -أنت راضيه، بل وحريصٌ عليه، وطالبُه في مظانِّه- ما أوقعته فِيَّ، وصدَّقك به النَّاس، الذين تجمعهم الهَيْعةُ، وتفرِّقهم الصَّرخةُ، وآذنتَ نفسك بفعلك وإيَّاهم بعيبٍ شائِن، وجهلٍ متسرِّعٍ.

بيد أنَّك أمعنتَ في سِرادِك الإذَايَة، وذهبتَ تَبحث في حلقومك عن إذاية أخرى، فوجدتها واقفةٌ على طرفه، في كلمة كنتُ ألقيتُها في مؤْتمر إسلاميٍّ، وكان حظُّك في فهمِها هو حظَّك في فهم كتابي «هي السَّلفيَّةُ» فذهبتَ تُلبّد من وحي إفكك، أكثر مما لبَّدت منه بعد دعواك أنَّك قرأت كتابي! ولولا أنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث لأقسمت يميناً، -أُقسم أني غير حانثٍ فيها- أنَّك ما قرأت كتابي ولا مرَّة واحدة!

وليس هذا فقط، بل أوهمت سامعيك، أنَّ هذه الكلمة

كانت أيَّام فتنة الخليج، وخرَصْت بالجمع بين سوء فهمك للكتاب، وبين سخيمة تدليسك على النَّاس في كلمتي تلك، وحسيبك الله!!!

أن يكون مسلم عاميٌّ كذَّاباً أمرٌ قد يقبل! أمَّا أن يكون الكذَّاب واحداً يقال في النَّاس: إنَّه داعية، ولو وقف عند الكذب لقسناه على العاميِّ!! وقلنا :لا حول ولا قوَّة إلا بالله، أمَّا أن يكون هذا الداعية، كذَّاباً، مدلِّساً، مخادعاً، ملبِّساً، حريصاً على أذى المسلمين، محرِّضاً الجهلاء على استباحة أعراض إخوانهم، مغرياً بهم الظَلمة، فأظن أيهذا الداعية الأفخم، أنَّ هذا عيبٌ! أليس هذا صحيحاً!؟ ولا أزيد! وحسيبك الله.

وأظنُّك يا عزيزنا تحفظ قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «ما لأحدكم يرى القذاة في عين أخيه، ولا يرى الخشبة في عينه».

أهذا: أيهذا الرجل الرامي غيرَه، بسهمِ وغرٍ ما سألت عتاباً، من أخلاق السَّلف وصفاتهم، وحسن صنائعهم، الذين كتبت وخطبت، ولا زلت تكتب وتخطب عنهم؟!

اتق الله، وخذ حذرك من نفسك، وانضُ ثوبَ الكبر والغرور عن عقلك وقلمك، ولا تمش في الأرض مرحاً، ولا تصعِّر خدَّك للناس، وأسْبِتْ قلبك لله بطاعته، واذكر دائماً أنَّك معروض على الله يوم الحساب فماذا أنت قائلٌ له

وأنت قادمٌ إليه بتلك الأوزار الثِّقال، التي قويَت منكباك على حملها؟!!! غير ناظرٍ إلى توبة عاجلةٍ في دنياك –من كبرٍ أنت حاسِبُه نافِعَك يوم تلقى الله– يومَ الهول الأكبر–، ولا راجٍ رحمةً من الله في آخرتك، تحبِسك عن حرِّ جهنَّم، وتنجيك من سوءِ صنيعك.

والسَّلام على من اتَّبع الهدى، واستقام على أمر الله، ورضي حكمه طائعاً، منيباً إليه في غير عوجٍ.